شهادات

– نبيل عمرو
– غسان زقطان
– فيصل قرقطي
– محمد حلمي الريشة
– زهير أبو شايب
– وليد الشيخ
– علاء الدين كاتبة
– أشرف الزغل

لقطات مرحة تحت ظلال البنادق

نبيل عمرو*

حين طلب مني صديقي المتوكل طه، أن أكتب مقالاً لهذا العدد .. ترددتُ .. وحاولتُ اختلاق أعذار هي من النوع الذي لا يقنع المتوكل وأعترف – على صفحة الشعراء – أن سبب ترددي في الكتابة .. هو الرهبة .. والإجلال .. التي أشعر بهما، كلما طرقت باب الأدب والإبداع .. فبوسعي كتابة ألف صفحة في السياسة، ومثلها في الصحافة .. بل أكاد أكون فعلت أكثر من ذلك بكثير .. أما حين يتصل الأمر بالأدب .. فالصورة هنا تختلف .. والاستعداد لديّ يتراجع إلى أدنى حد .

لذا .. فما أكتبه اليوم، ليس أدباً ولا صحافة .. إنه شيء خاص .. فيه نفسي ولا شيء أكثر .

* * *

في أيامي الأولى على أرض الوطن .. وبعد غياب دام سبعاً وعشرين سنة .. اقترح عليّ «المتوكل» زيارة لبلدته المحبوبة «قلقيلية» .. لم أتردّد في قبول الاقتراح .. وتوجّهنا على الفور إلى هناك .. قبل دخولنا قلقيلية، أوقفنا حاجز إسرائيلي، دار جدل صاخب بين المتوكل والجنود .. كان النقاش بالعبرية، وكنت أتحرّق شوقاً لمعرفة الأمر ..جاملني المتوكل، وترجم لي خلاصة الحوار بجملة قصيرة، إنهم يريدوننا أن نرجع إلى الوراء مائة متر .. وننتظر حتى يأذنوا لنا بالاقتراب .

وجدت صعوبة في تقبّل الأمر، وظننت أن صديقي المتوكل بحاجة لمؤازرتي في معركته العبرية، فأمطرت الجنود بوابل من الشتائم، وفيما يبدو أني استخدمت كلمة نازية .. دون تدقيق ..

اتخذ الإسرائيليون وضعاً قتالياً، كنت قد تعرّفت عليه أثناء وجودي الطويل في حرب لبنان من اليوم الأول حتى الأخير .. وفي رحلات الحواجز متعددة الجنسيات واللغات .

كان الرشاش المصوّب نحونا .. من عيار ثقيل .. وكان الجندي المهدد بالضغط على الزناد .. يبدو عصبياً

إلى أبعد حد .. نظرت إلى وجه المتوكل، تشاورنا بالنظرات .. وأشار عليّ بالصمت .. أي أنه سيتولى قيادة الأزمة .

احترمت رغبة المتوكل، ولا أدري هل هي مكرمة مني أم تحت ضغط الرشاش المصوب إلى صدري ..

تغيّرت لهجة المتوكل، تحوّل من مقاتل شرس إلى دبلوماسي هادئ الأعصاب والنبرات .. تحدّث للجنود مطولاً .. فانفتح الباب أمامنا .. وعبرنا ..

وما أن أضحى الحاجز وراء ظهرنا .. حتى انفجرنا بالضحك

سألت المتوكل: ما الذي جعلك دبلوماسياً بارعاً إلى هذا الحد؟

أجابني .. إنه خوفي عليك .

قلت .. لا أشك في محبتك لي .. إلا أنني أشك في أن الخوف على حياتي هو السبب الوحيد ..

سأل المتوكل: إذا ما هو السبب؟؟

قلت: إنك تخشى لو استشهدنا .. أن يرثينا شاعر رديء .. فنقتل بعدها للمرة الثانية .

* * *

وصلنا إلى قلقيلية .. كانت البلدة التي يحب أهلها تسميتها بالمدينة .. تقيم مهرجاناً ثقافياً .. وللحقّ .. فإن مهرجان قلقيلية آنذاك .. جعلني أحب الوطن والناس أكثر، وجعلني أفهم بعمق وصفاء .. كيف يتحوّل حاجز الاحتلال إلى شيء ما .. إلى ألم عابر .. إلى أمر يمكن أن تضعه وراء ظهرك وتمضي .

كان الشاعر الشعبي يطلق أبياته الأخّاذة في الفضاء .. كان المثلث والجليل .. يسمع نبض قلقيلية .. شعراً وموسيقى ويهتز على إيقاعات الدبكة .. لم أرَ مسافات بعيدة تفصل الناس عن الناس، والأرض عن الأرض .. لم أكن بحاجة إلى إغماض عيني لأرى وأسمع دورا .. بلدي .. في مهرجاناتها الشعبية التي تتجدد مع كل عرس، وتنبعث مع كل احتفال بعودة غائب .. كان الجمهور فرحاً بوجود خليلي عائد .. والخليلي ليس مجرد ضيف .. إنه مجمع طرائف .. ولقطات .. من نوع في واحد خليلي ... الخ .

اعتبرني أهل قلقيلية ضيف شرف .. أحاطوني بدفء الحب .. وحنان الأهل المتشوّقين لاحتضان ابن غاب طويلاً .. غنّى الحادي أبياتاً لي .. ولبلدي دورا .. ولمدينتي الخليل .. كانت جميلة بلا حدّ .. نظرت إلى المتوكل وقلت:

حين نعود ثانية إلى الحاجز الإسرائيلي لن تحتاج إلى دبلوماسية هذه المرة، فبوسعك التضحية بحياتنا، فقد حصلنا على رثاء رائع قبل أن نموت .

بتنا ليلتنا في قلقيلية .. كنا قد سهرنا مع بعض أقارب المتوكل، كانت سهرة ضاحكة .. ومن عادة الفلسطينيين، أن يجمعوا الطرائف من كل أنحاء العالم، ويترجمونها إلى اللغة الخليلية .. ألحّ الساهرون عليّ أن أقدّم طرفة خليلية أصلية .. قفزت إلى خاطري نكتة العاشق الخليلي الذي أحب فتاة وتقدّم لخطبة شقيقتها .. وحين سأله أصدقاؤه لماذا خطبت شقيقة حبيبتك؟ أجاب: لأنها من ريحة الحبايب!!

ضحك الجالسون وأصرّ أحدهم على إكمال النكتة حين قال:

نعم حدث ذلك مع شخص أعرفه من قلقيلية .

*   *   *

الله .. الله ..!

كم نحن بحاجة للمرح ..

كم نحن بحاجة لليال جميلة .. تشمّ فيها رائحة زهر البرتقال، وتتنفس فيها هواء رطباً يتسلل من بين ثنايا الشجر .. وتتحدّث عن طرائف الخليل .. ونابلس .. وحكايات غزة .. وتمدّن القدس ذات الشوارع المبلّطة التي لا يحتاج فيها القرويون إلى أحذية ..

كم نحن بحاجة .. إلى شاعر يغادر الألم قليلاً ويفرج عن قصائد الغزل المسجونة في عمق أعماق روحه ..

كم نحن بحاجة .. إلى الضحك من الأعماق .. الضحك الحقيقي – الذي لا يعرفه إلا من لا يعرفون الاحتلال .

---

* **وزير الشؤون البرلمانية، عضو المجلس التشريعي الفلسطيني.**

15

كلّ هذه الطرق !

غسان زقطان*

أيقظني غالب مبكراً، الرابعة صباحاً، ربما كانت السفينة تعبر نحو ميناء «الحديدة» في اليمن، وكان كل شيء يشي بيوم قائظ آخر... ومثل مشهد من فيلم «إيرلندي» محافظ بَدَتْ أجساد المقاتلين موزّعة على سطح الباخرة اليونانية، السياحية، ... أجساد منفلتة وحاذقة تصرخ في نومها العميق ذاك، بينما تواصل الباخرة اندفاعها في مياه البحر الأحمر، نحو مضيق باب المندب ثمّ المحيط ... حيث سيندفع في التماعات متلاحقة كشّاف هائل على بوابة المحيط.

كان عليّ أن أتبع غالب حتى حافة السطح وحيث أشار بإصبعه رأيت احتفالاً لأسماك فضيّة كبيرة تتقافز في نظام دائري محكم، على الماء الهادئ.

بدا المشهد في تلك الصبيحة المبكّرة أشبه بلوحة زيت انطباعية. كان يمكن تخيُّل ضربات فرشاة خشنة حيث «استند القبطان اليوناني» على الحاجز في المقدمة مديراً ظهره لنا..، غالب وأنا بالأزرق المعتم نحدّق صامتين في لعبة الأسماك الفضية، ولا أدري أين اختفى «غيلان» منذ الليلة الماضية. «جيفارا»، بلا شك، يجلس على طرف السرير في القُمْرَة تحت، يغالب النوم ويواصل تحديقه في خزانة الثياب المغلقة، حيث أخفى كاميراته وأجهزة التصوير...، أما «شاكر لعيبي» فقد تركته لتوّي مستغرقاً، على السطح في نوم قلق بعد ليلة طويلة أخرى من تذكِّر بغداد .. وعلى السطح وفي زوارق النجاة والمقاعد والزوايا ... افترش الفتيان كل شيء وناموا، ناموا، تماماً، مثل حجارة قديمة، فكّرت في أمنية الشاعر غير المتحقّقة: تلك التي سيستعيرها محمود درويش في إضافة ذكية: «ليت الفتى حجرُ ...»

وكانوا «ملمومين» ... هل تكفي المفردة هنا للصورة بكامل حركتها؟! «تنبو الحوادث عنه وهو ملمومُ». «غالب هلسا» الوحيد الذي لم يَنَمْ تلك الليلة، إذا اعتبرنا أن حراسة «جيفارا» لكاميراته نوماً مذعوراً... ولكنه نوم.

غالب الذي غادر عمّان في صبيحة مختلفة العام 1954 إلى القاهرة... وهناك وجد حكايته الحقيقية، فبقي إلى أن أبعده قرار سياسي في نهاية السبعينيات ليمرَّ على بغداد ثمّ بيروت التي غادرناها معاً، بعد حرب دامية محمولين على سفينة يونانية في طريقنا إلى عدن وسنعود بعدها معاً، إلى دمشق، هناك سيموت وحيداً في شقته بعد ثماني سنوات، الذين وجدوه قالوا: إنه حاول جاهداً في لحظاته الأخيرة الوصول إلى الهاتف.

«شاكر لعيبي» القادم من العراق في سياق هجرة جماعية لمثقفين ومناضلين وحزبيين محترفين، وصل إلى بيروت شاعراً، كان يحمل أكثر من مغامرة واحدة، كان يرغب أن يرى العالم بعينّي شاعر، فيما بعد سنعود إلى دمشق ثم سيبعث لي كتبه من «جنيف» ... وسيكون ذلك في نهاية القرن.

«غيلان» عراقي آخر، لا يخلو جنونه من الصنعة، سيعود إلى «بغداد» بعد سبع سنوات وسنلتقي هناك، ثم ستصلني منه مجلة ثقافية يرأس تحريرها في مدينة ما بأستراليا.

«جيفارا» ضابط مدفعية سابق ومصوّر فوتغرافي، جاء من شرق الأردن، وأصيب في مكان ما في جنوب لبنان ... عندها قرر أن يغيّر حياته كليّاً، ولا أدري لماذا اختار التصوير!!

على سلّم السفينة في ميناء بيروت، أضاف «جيفارا» إلى حمولتي حقيبة ثانية ممتلئة بالعدسات وأجهزة الضوء والبطاريات، كان حذراً في صعوده خلفي، ومتمهّلاً حتى أنه تسبب في تراكم طابور من المحتجين خلفنا ... وعندما وصلنا إلى السطح انتحى جانباً، ليتفادى صعود المقاتلين المتصّل، خلال ذلك؛ حدّثني عن الكاميرات التي يحملها، عن كل شيء، تقريباً، يتعلّق بالتصوير وقيمة ما نحمل ...

ولم أكن مهتّماً، على الاطلاق بهوايته تلك، كنت منشغلاً، في تأمل الميناء، وتمييز الجنود الفرنسيين والإيطاليين من قبّعاتهم والمقاتلين الألف الذين يصعدون في رتل طويل ونحيف إلى السفينة ... وبمصير «الفودكا» التي فسدت، تماماً، في المطرة البلاستيكية الخضراء على حزامي.

أظن، أنّني حذرته من المبالغة في حماية ممتلكاته أو شيء من هذا القبيل، بعد سنة، تقريباً، سنذهب هو وأنّا لنغطّي حرباً أخرى؛ حرب الجبل؛ وسنصعد تلالاً ونعبر مدن الجبل اللبنانية «عاليه» و«بحمدون» في طريقنا إلى «سوق الغرب» عبر «بيصور». وسنكون شهوداً صامتين على زوبعة من الموت والحرائق ولن نحظى بعد أكثر من ثلاثة اسابيع كاملة بصورة واحدة بسبب حرصه المبالغ فيه على كاميراته.

الطريق الترابية الضيّقة، التي تهبط الوادي الوعر وتصعد نحو «بيصور» في مواجهة «سوق الغرب» حيث تهتّز ثلاثة سيارات عسكرية ودبابة روسية قديمة تثير الغبار بعد أن غرزت في منعطف حادّ أمامنا، مررنا على أربعة مقاتلين يجرّون بواسطة حبل مجدول راجمة صواريخ «كورية»، كان هناك مقاتلون آخرون يتسلقون السفح الحرجي ... كنا قد أقنعنا سائق سيارة تموين بأن يحملنا بعد أن قطعنا المنطقة الأكثر صعوبة في الانحدار ... من بعيد وعلى سفوح التلال التي تتّجه نحو الجنوب، كان الدخان يتصاعد من القرى الصغيرة مختلطاً بأبخرة الأحراش وخضرتها الداكنة، فيما نحن نواصل انحدارنا محاطين بأشجار حرجية قصيرة ونباتات شائكة، كان يمكن تمييز أبنية الكنائس والأديرة وفي مكان ما من المشهد كان يمكن أن تميّز البيوت المهجورة.

البيوت .. طرق في الأقفاص

ثمّة شيء مختلف، رائحة، صمت ... خيانة، ربما، يمنح البيوت تلك السمة، زاوية زجاج مكسور أو عشب على العتبة، ثمّة من يخبرك، هنا، ومن يصف، طاقة من الوصف أو الإشارات الخفيفة في الهواء، تمنحك القدرة على تمييز تلك البيوت ومعرفتها وتسميتها، أيضاً... إشارات تأخذك نحو مناطق أخرى غارقة في التفاصيل، فجأة، تنكشف أمامك البيوت التي تركها أهلها على عجل... دهشة الشبابيك، أغراض صغيرة وصور وملابس .. وخزانة مواربة... صورة الأب أو الجد في صدر غرفة الجلوس، الأسرار الصغيرة للغرف تبدو مفضوحة تماماً، تحية مقتضبة على الدرابزين الحديدي الذي تقشر دهانه .
دائماً كنت أفكر أنّ البيوت طرق أخرى تم تكثيفها والتفاهم معها، أو أنسنتها وتحويلها إلى طرق أليفة بينما بقيت تلك التي لم نتمكن من إقناعها حرة ومفرودة تستدرجنا إلى مسرّاتها ومهالكها .
البيوت طرقنا الأليفة تلك التي، استطعنا، بدأب انساني مذهل، أن نربيها من أجلنا ومن أجل أولادنا لترعاهم وتحميهم، شيء يشبه أن تحمل لهم في أعياد ميلادهم كلباً أو قطّة أو كناري في قفص، البيوت طرق في الأقفاص ...
في «الحافلة» التي صعدت في ليلة ممطرة من «توزر» في أقصى الجنوب التونسي نحو العاصمة، في ليلة ممطرة من شتاء 1990 كان «آدم فتحي» إلى جانبي، نهتزّ لساعات طويلة على طرق ضيقة ونهبط لنرتاح في قرى نائية ومحطّات لا وجود لها واستراحات يشير إليها ضوء وحيد، الباب الذي انفتح على الإسفلت مباشرة، باب أزرق باهت، دفعناه في منتصف الليل لندخل إلى قاعة واسعة فرشت أرضيتها بالحصباء الخشنة وفي الداخل موائد خشبية كالحة ومقاعد من القشّ، «من تلك التي تستخدمها المقاهي الشعبية» ووجوه يغطيها دخان التبغ والأراجيل والأصوات والروائح البشرية المتنافرة، فلاّحون وعمال ومودّعون بانتظار حافلات الليل القادمة من الجنوب أو المنحدرة إليه .
في تلك الحافلة التي لم أعد أتذكّر لونها الآن، فكّرت بكل هذه الطرق، بالقرى التي تبدو مثل ثمار مهملة على أطرافها وبالأبواب التي تنفتح على الإسفلت مثل فلاح جريء، يعبر صالة سينما للمرة الأولى، .. بدت تلك الأبواب في حينها وكأنها امتداد هندسي أخرق للطرق، أو وفي محاولة لإنقاذها من المجاز القاسي بدت وكأنها تنويع على الأبواب أو أنها أبواب، فقط، تمشي في نومها .
كان النص، محاولة نزيهة لنقل المتخّيل، وتطويعه، إعادة تركيبه على التراب مباشرة، منقطعاً ومعزولاً عن غواية الذهاب إلى أبعد من ذلك نحو متواليات وانزياحات متلاحقة .
وكان المشهد مساوياً في قوّته وطاقته لرحلة قطار منتصف الليل من «موسكو» إلى «لينينغراد»، قبل أن تعود لتصبح «سان بطرسبرغ»، المحطات المتروكة في الثلج والأضواء التي توهمك بغيابها، رجال ونساء يتلفّعون بمعاطف ثقيلة ويجلسون على مقاعد مكشوفة، أشخاص لا يصعدون إلى القطارات ولا يهبطون منها، يجلسون هناك، حتى الآن، ربما، ..... الدساكر وكثافة الدخان التي تخترق رماد الصباحات المبكرة تلك، .. رائحة «الفودكا» والسجائر الكوبية القوية وسخونة أكواب الشاي، فيما القطار يندفع

تاركاً خلفه، دون شك، ممراً بين ليلتين تاركاً ظلالاً لأضواء نوافذه وممرّاته عالقة على أطراف البتولا وأجنحة الغربان النائمة .

في الأمتار القليلة التي ينتهي عندها الإنحدار ويبدأ الطريق بالصعود شرعت البارجة الأمريكية «نيوجرسي»، أظنّ أن اسمها كذلك، بقصف زاوية الأرض تلك، وبانتظام وتداول عجيب كانت خمس أو ست قذائف تتساقط في الأمتار القليلة أمامنا، ... قال لي «جيفارا»، بعد ان اهتدينا إلى حفرة على جانب الطريق: هذا ما يسمونه «الجدار الناري»، كانت القذائف تقطع الطريق، تماماً، أشبه ببوابة من النار وكان واضحاً أنهم يقصدون قطع الممر وليس قتلنا .. وكان هذا عبثياً إلى حد بعيد. فيما تندفع صليات لرشاشات ثقيلة بين وقت وآخر بين خطوط الأشجار من ثكنة في أعلى «تلة البرنس» المشرفة على الوادي .

تذكرت «نيوجرسي» وأنا أعبر ردهات البيت الأبيض في صيف 1998، ولا أدري لماذا توقفت، طويلاً، أمام لوحة زيت معلقة على أحد جدران الصالة الغربية يبدو فيها «أبراهام لينكولن» وهو يمدّ يده لمصافحة سيدة في حفلة راقصة، كان طويلاً ونحيفاً كما هو في الرواية، وكما ينبغي لرجل قُتلَ في صالة مسرح أن يكون.

في المقابل، في ردهة قريبة من المخرج حيث الإضاءة أفضل كان جون كيندي، قتيل آخر، يشبك يديه على صدره ويحدّق نحو الأرض، تحت الإطار، تماماً، حيث أريكة تتسع لشخصين.

ليس بعيداً عن هناك نصب لقتلى «فيتنام» من الجنود الأمريكيين صمّمته فنانة صينية، زاوية هائلة من الرخام الأسود تهبط تحت سطح الأرض، وعلى الرخام أسماء عشرات آلاف الجنود القتلى لحرب لم يستطع الأمريكيون أن يتفقوا على وصفها، ولم يستطع أولئك القتلى أن يصعدوا فوق سطح الأرض في عاصمتهم، أو أن يرفعوا أسماءهم وتواريخ موتهم، أشبه بقبر جماعي، قبر للحرب وللتدخل ولفكرة الموت، دون جدوى،... في بيوت الآخرين .

وفي الأعلى وعلى مستوى قامة رجل تبرز أطراف العشب، كأنما لتذكّر العابر أن ليس ثمّة مجداً في هذه الحفرة.

«جيفارا»! لا شك أنه يجلس الآن مرهقاً، على حافة السرير، أمام الخزانة حيث مقتنياته وهاجسه .

أخرج قليلاً من قتامة الأزرق على حافة السفينة إلى ما يشبه الفضّي لأتشابه مع لعبة الأسماك بينما أفكّر بتصرفي غير المبرر في الشاحنة العسكرية صبيحة الخروج عندما لمحت «ميشيل» وهو يركض بين الشاحنات التي اصطفت في الملعب البلدي ويحدّق في وجوه المغادرين إلى اليمن... فكّرت، للحظة، أنه يبحث عني ليودّعني. ولمّا لم أكن أحب لحظات الوداع ... فضّلت أن أبتعد عن نظره وأجلس في وسط الشاحنة فوق الأمتعة وأكياس المقاتلين... حيث يطلق ثلاثة أو أربعة منهم، بدون توقف، رصاصاً كثيفاً في الهواء... ولأنني انخفضت أكثر مما ينبغي أصابني «الظرف الفارغ» المتطاير من بنادقهم في وجهي.. وتحت عيني .

لكن «ميشيل» رآني، التقطتني عيناه من فجوة المقعد الخلفي للشاحنة، كان قادماً بالضبط ليودّعني،

قبّلته بين عينيه..، فيما بعد، استمر يسألني عن سرّ جلوسي الغريب ذاك، في وسط الشاحنة... دون أن أتمكن من تفسير الأمر له، إلى أن اغتاله على باب فندقه في أثينا أحد القتلة؛ من أولئك الذين انتشروا في نهاية السبعينيات والثمانينيات، ... كان ذلك بعد أربع سنوات أو أكثر قليلاً...

في تونس، وفي صبيحة أخرى، بعد أكثر من عشر سنوات، ركض «توفيق فياض» في ردهة المطار، ركض بقوة واندفع وسط تزاحم المقاتلين المئة العائدين إلى غزة ومودّعيهم، قفز على الحقائب والأمتعة والعربات بخفة مفاجئة لا تناسبه .. ليودّعني .. كان ذلك مؤثراً وعميقاً، وبقيت آثار تلك المعانقة السريعة مثل حزن صغير وعنيد، تترنّح معي وأنا أحدّق في حقائب وأمتعة العائدين المربوطة بشبكة هائلة، في وسط طائرة المظليّين السعودية، أمتعة شخصية وأكياس عسكرية، لا تختلف كثيراً عن تلك التي ألقيت جسدي عليها في الشاحنة العسكرية صبيحة الخروج من بيروت، .. في حقيبة الظهر كتب لا يربطها خيط، الإستشراق لإدوارد سعيد بترجمة كمال أبو ديب وكفافي بترجمة سعدي يوسف، مختارات من «جاك بريفير» لا أذكر مترجمها و«بيدرو برامو» لـ«خوان رولفو» بترجمة صالح علماني و«رعاة العزلة» لأمجد ناصر. بينما تركت هناك مع ليلى لوحة «لَيزا سرور» و«أحد عشر كوكباً» كتاب درويش بإهداء منه .

لم أحاول أن أختفي من توفيق، توفيق الذي لم يعد حتى الآن إلى «المقيبلة» في وادي عارة، وهو الذي وصف لي خلال خمس سنوات في تونس الطرق والجبال والبحر والنباتات وشوارع الناصرة وحيفا ...

ولساعات متأخرة من تلك الليالي كان يواصل وصفه الساحر ذاك في مرسم «جمال الأفغاني» حيث أقمت...

كنت أتخيّله يجمع كل شيء قبل مغادرته إلى منزله في أحد منازه تونس، البيوت والأرصفة والجبال والنباتات والأسماء، ويمسح عنها غبار الوصف ليعيدها إلى جيوبه كاملة غير منقوصة كما يجمع علبة السجائر والولاعة وسلسلة المفاتيح.

قلت له مرة: إذا عدت إلى فلسطين سأعيش في رام الله، يا توفيق، سأبني بيتاً في الجبل، رام الله هي الذاكرة الوحيدة التي أستطيع أن أتمسك بها في فلسطين، رحلة الصيف من منفى أبي في مخيم الكرامة شرقي نهر الأردن إلى الجبال... ذلك ما سأفعله بالضبط لو عدت ورجعنا...

صوت النهر

لم تكن الرحلة إلى «رام الله» شيئاً عادياً في تلك الأيام، أبناء العم الذين ينتظرون، التربة الحمراء والشوك الجبلي «النتش»، النوم في الكروم تحت السماء والطارق ومراقبة الشهب وهي تهوي والتسابق على التمنّي قبل أن تحترق، الذهاب إلى «رام الله» كان يعني الصعود من الغور في سيارة «أبو راتب» الخضراء وتكدّس العائلة كاملة في المقعد الخلفي باستثناء الأخت الصغرى التي يحتضنها الأب في المقعد الأمامي، .. كان التزاحم على الجلوس قرب النافذة ومراقبة الأرض وأعمدة الكهرباء والهاتف

وهي تندفع إلى الخلف بنظام عجيب، ... كان أيضاً، التحديّق في الوديان العميقة وإغماض العينين عند المنعطفات الصاعدة بعناد نحو «الطيبة» على كتف الجبل ...، كانت مراقبة الغيوم المنخفضة وهي تزحف على أعمدة الإرسال العالية أو وقبل كل ذلك كان أن نقطع النهر؛ نهر الأردن، عبر جسر اللنبي أو جسر الملك حسين أو جسر الكرامة وهو نفس الجسر، وأن نحدّق في مجرى النهر الأخضر العكر بينما يقرقع الجسر ويرتجّ تحت عجلات السيارة، ... صوت النهر، أو صوت الجسر ذاك كان جزءاً أساسياً من الرحلة بين «الكرامة» و «رام الله» كل صيف، تلك الرحلات التي انقطعت منذ العام 1967 .

اختلف كل شيء الآن، اختلف بطريقة قاسية وعنيفة ... وفي غيابنا، أيضاً، عندما حاولت أن أبدأ من «الكرامة» في الصيف الماضي محروساً بكل تلك الذاكرة والرغبة ... بدا الأمر وكأنه موت عاصف أصاب الأشياء جميعاً.

لم يكن هناك بيت يصلح للتذكر أو طرق طينية خشنة تصلح لركض الصبية أو قنوات مكشوفة أو مزارع غامضة تنحدر حتى النهر...، حتى قبائل «العدوان»، لم يعد فتيانهم يعبرون من أطراف «الشريعة» على خيولهم المدللة ...

المقبرة في أعلى التلال شرقي «الكرامة»، قبل أن يقلع الجبل نحو قريتي «عيرة» و«يرقة» .. ثم «السلط»، حيث صعدنا عشرات المرات خلف نعوش كثيرة، نحيط بالمقرئ الأعمى، كان ثمة مقرئ أعمى متوفراً في مثل هذه القوافل...، كنا نتخيل فيما يشبه اللعبة شكله المسجّى في النعش وأفكاره ويديه ....، أما إذا كان منّا، وغالباً ما كان كذلك، بسبب الملاريا أو لدغات الأفاعي والعقارب أو الغرق في البرك...، فقد كنا نقترب ونتسلل من بين أقدام الرجال حتى نلامس ظلّ النعش ونناديه باسمه، أولاً، ثمّ بألقابه التي يحبها ثمّ بألقابه التي لا يحبها ... وفي الليل نشعل ناراً على السفح قريباً من قبره الطري .

كنّا مثل مجموعة مجاورة لحياتهم، كان العالم مقسوماً بعدالة واضحة بيننا وبينهم، ... الشوارع لنا والمقاهي لهم، القنوات لنا والمزارع لهم، البيوت لهم والجبال لنا، مضخّات المياه لهم والنهر لنا، الماشية والغنم والأبقار والبغال وحمير الجرّ والعربات لهم، والكلاب والطيور وحمير البدو الضالّة والقطط لنا، النعوش الكبيرة لهم والنعوش الصغيرة لنا...، الجامع والمضافة لهم والمدرسة والحارة لنا ....،

فجأة يبدو الأمر وكأن زلزالاً عبر تلك المناطق والخطوط وأبعدنا «عنّا» دون أن يكون لنا دور في ذلك، وببطء نتغيّر كل صباح ... وعلى مدار ثلاثين سنة لنصبح في النهاية «هم» دون أن نرغب في ذلك أو نحبه .

من كل هذا بقيت تلك البرهة الطويلة، البرهة الساحرة التي لم يتمكن زلزال العمر الهادر تحت أرضيات السنوات من نفيها أو نقلها إلى مناطق أخرى، قرقعة الجسر تحت العربة !

يا الله ... كم يبدو ذلك أليفاً وحميماً وخاصّاً وشبيهاً بتلك الأيام قبل أن نصبح «هم» ... ما زالت المياه في النهر خضراء وعكرة وما زال الخشب يصدر تلك الأصوات المذهلة هناك في الأمتار القليلة بين الضفتين .

تلتمع المياه تحت ثقل الضوء على مدخل المحيط، تترجرج بلونها للأزرق الغامق، رغم الليل، هنا في هذه النقطة تحديداً يتداخل الضوء واللون والصوت، تدرّجات الأزرق ومنصات حقول النفط المشتعلة

المزروعة داخل الماء مثل زهور نارية مذهلة، الهدير العميق المترامي الذي لا ينبع من نقطة أو مكان أو وجهة، الهدير الذي يتجمع مثل معدن حي وشامل وينتظرك مباشرة بعد المضيق... هذا هو المحيط..
ومثل نهرعريض وهادئ يمتد البحر الأحمر خلفنا، خيط من الماء يفصل آسيا عن إفريقيا ويفصلنا عن زمن ليس بالإمكان تفادي تذكره.

خفق الأجنحة

كان الدم خلفنا الآن، في الشوارع التي لن نعود إليها وتحت أعمدة البنايات المحترقة، ... الجنازات المقتضبة التي ركضنا فيها ونحن نحمل أجساد قتلى لا نعرفهم وآخرين عرفناهم بعمق، الجنازات السريعة ذات المشيّعين الأربعة أو الخمسة لأشخاص تعوّدنا على غيابهم، وكأن دورهم في حياتنا هو، بالضبط، غيابهم ... خلفنا، الحكايات التي تشكّلت هناك، البطولات الصغيرة التي كنا نتداولها لإلهاء الموت وتسليته تتفكك وتطير مثل أجنحة وحيدة ومرتبكة، أجنحة، فقط، هي التي ترفُّ الآن هناك، خفق طويل وكثيف ومؤلم لا يتوقف لأجنحة غير مرئية تحوم فوق المدينة التي تركناها وفوق السفينة التي تعبر البحر الأحمر نحو مضيق باب المندب فوق ظلّين رماديين يتكئان على حاجزها الأمامي .. وها نحن نخرج من الفضي إلى الرمادي الفاضح حيث تتقافز أسماك فضّية نظيفة وكبيرة على ماء هادئ في الرابعة صباحاً، وهي التي كانت تحلّق فوق رؤوسنا ونحن نصعد «تلة البرنس» ومنحدرات «بيصور» تحت قصف البوارج الأمريكية، كان يمكن تمييز خفقها بين صفير القذائف وانفجاراتها، الأجنحة التي خفقت فوق جثث القتلى المحترقة في دروب ومسالك الجبل وشوارع وأدراج «عاليه» و«بحمدون» في ذلك الخريف، جسد الولد الصغير على الدرجة الرابعة من منزله، هل كان يحاول العودة إلى البيت أم الهروب منه... كان خائفاً ومذهولاً وميتاً قبل الرصاصة بوقت طويل... الأجنحة التي تخفق الآن في عتمتها فوق «رام الله» وفوق الحواجز وأكياس الرمل والمدارس والملصقات والأسود الحجرية الأربعة في ساحة المنارة وأجساد الأولاد في المسيرات ومواقع الحرس الرئاسي على مفارق الطرق.
أنظر إلى أصابعي لأتذكرهم، أصابعي التي صافحتهم وربتت على أكتافهم وحملت نعوشهم وأذهب أعمق من ذلك كلّه حيث نواة الغياب ومنابع النقصان.

بيروت / آب / 1982

ألن يكف هذا الفتى عن الصراخ ... ! لماذا لا يصمت؟! عليه أن لا يفعل ذلك هنا، لقد انتهى الأمر...
– أيزعجك إن صرخ قليلاً:
– لا، إنه يحزنني، فقط، صوته يجعلني أبكي ...، لا أريده أن يصرخ ولا أريد أن أبكي، اذهبي إليه وقولي له: لا تصرخ، انظر، فقط، وتذّكر إذا استطعت اذهبي إليه الآن، إنني لا أستطيع أن أتذكر عندما يصرخ، صوته يمزق ذاكرتي، وقولي له، أيضاً، إنه يتلف أملاكي، قولي له عندما تقتربين منه: أن صوته يدخل

في حقلي ويدوس كل شيء ... فتتداخل الأسماء والوجوه والأماكن... وتحركهم هناك، وأن هذا يربكني ويؤلمني ... وقولي له: إن هذا ليس من حقّه، اذهبي إليه الآن وأخبريه أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً عندما يصرخ، أرجوك اذهبي الآن ... وأخبريه أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً عندما يصرخ، أرجوك اذهبي الآن ... لا أريد أن أفقدهم...

لقد كنّا جميعاً هناك، عندما دخل الانفجار الملجأ، كنت أمسك يد ابنتي بينما كان يجلس هو على الدرج دون أن يمسك شيئاً، كان خائفاً هناك على الدرجات عند مدخل الملجأ، لم يكن ملجأ ... كان قبواً مكشوفاً أسفل بناية قديمة، لا أدري من أخبرنا أنه ملجأ، لا أحد، ربما ... كنا نركض في الشوارع نبحث عن ثقوب توصلنا إلى أسفل ... وكان الفتيان يتراكضون مثل فهود رشيقة في الشوارع والمفترقات ويشيرون لنا نحو أبواب وثقوب ومداخل وأنا أشدّ يد ابنتي وأركض بينما المدينة تشتعل.

هل أخبرتك أنني كنت أمسك يد ابنتي عندما دخل الانفجار إلى الملجأ، بينما ذلك الفتى يجلس على درجات المدخل!؟. واصلت الضغط على أصابعها الصغيرة بينما كل شيء كان يطير وينفعل ويسبح في عناصر جديدة ...، ولكنّ ملمس أصابعها في يدي كان يشدّني إلى هناك ... كنت ألوّح بيدي الثانية، اليد الضائعة التي لا تمسك بيد ابنتي أو بيد أحد .. لم يعد ما أتشبث به إلا كفّها الرقيقة وأصابعها الخمسة.. التي أصبحت كلّ ما هو، وكلّ ما أعرف وأتذكر ... فجأة صرخ هذا الفتى بنفس هذه الطريقة، كانت المرة الأولى التي أسمعه فيها، هناك سمعته للمرّة الأولى، وكان صوته غريباً، لم يكن صوتاً تماماً، كان شيئاً جديداً، كائناً مستقلاً وخاصاً ينفصل عنه ويتكوّن إلى جانبه ... ولم أكن أسمعه تماماً، كنت أدرك صراخه...

وأدركت، أيضاً، ولكن برعب عظيم أن ثمّة تخطي عتبة قد تمّ، شيء يشبه ذلك، أن تعبر الزجاج وتظهر في الجهة الأخرى وأن تكون خفيفاً ومباشراً، وأن تصلك الأشياء عبر أنفاق في الهواء، ثمّة هواء يصف لك كل شيء ... الصوت، المشهد واللون ... أن تدخل حافياً وعارياً وخفيفاً إلى برهة ممتدة من التركيز والكثافة، والأنفاق ... الممرات التي في الهواء لا تتوقف عن توصيل تلك الإشارات القصيرة نحوك، إشارات مليئة بالوصف، الوصف العظيم لكل شيء ... الإشارة القصيرة الكثيفة المبهمة تتفكك فيك إلى وصف آخر ... فتدركه، بالضبط تدركه، هناك لا تستطيع أن تعرف، المعرفة حقل آخر.

كنت محترقاً، لقد شاهدت ذلك، فجأة رأيت، كنت ملتصقاً بالجدار واقفاً، كما أنني هناك، وأنني سأنزل وأواصل المشي بعد قليل متجهاً نحو الدرجات في طريق عودتي إلى البيت، ... الدرجات حيث كان الفتى يصرخ، وكنت محترقاً، هل أخبرتك بذلك؟ ... بينما أمسك بذراع الطفلة ... ذراعها، فقط، لم تكن محترقة جميعها، أصابعنا المتشابكة كانت سوداء ومحترقة من أعلى المرفق حتى الكتف، كان يمكن تذكُّر جسدها الرقيق الأبيض وبقليل من التركيز شعرها القصير .. حيث لا أدري أين ذهبت بذراع واحدة...،

هل سمعت شيئاً عن طفلة تتجوّل بذراع واحدة؟

الفتى لم يكن على الدرجات، أيضاً، ولكنه كان يصرخ من مكان ما بين الدخان، أخبريه أن الأمر قد انتهى وأنني أريد أن أتذكّر.

عندما ركضت ابنتنا للمرة الأولى، كان عمرها أحد عشر شهراً.. في الشقة التي في الطابق السادس من بناية صفراء في جنوب المدينة، فتحنا الباب، وأسندنا وقفتها الصغيرة ونحن نراقب، بخوف، أن تتعثّر

على البلاط العاري... كانت أذرعنا تحيط بتلك الوقفة المرتبكة.. ثمّ مشت الطفلة الخطوة الأولى والثانية والثالثة دون ارتباك ... كانت تنتقل أيضاً، تتخطى عتبة، تدخل في علاقة جديدة تماماً مع الأرض وجسدها.
ملمس جديد للهواء وزاوية جديدة للعينين والأنف، قدرة الاقتراب من الأشياء منتصباً...!! ثم ركضت، خرجت فجأة، من حماية الذراعين، ركضت وكأنها اكتشفت أو أدركت، ركضت حتى نهاية الصالة ومن هناك إلى الشرفة واتكأت بيديها الصغيرتين على الجدار ... ثم بدأت تضحك وضحكت أنا ثم ضحكنا، جميعاً .
كانت الشقة فارغة وجديدة ورائحة الدهان تبدو كظلال في الهواء الراكد.. والضحك يتجوّل في الغرف الثلاث ويعود إلينا من كل مكان مصاباً ومشروخاً ... لقد اصطدم بالجدران والرائحة هو يحاول أن يعود إلى الحنجرة، إلى منزله وسريره وأمنه، ونحن نواصل الضحك وهو يتكاثر في فضاء الغرف حتى يمتلئ به ويؤثثه... غرفة البنت، أولاً ... ستائر ملوّنة وسرير من الخشب وخزانة وألعاب وعرائس وطاولة للكتابة، عندما تكبر، ورفّ صغير سنضع عليه رسوماتها عندما تتمكن من ذلك.
هل سألتك إذا كنت عرفت شيئاً عن طفلة تتجوّل بذراع واحدة؟!

* ألا تحن إلى عمّان يا غالب؟
– كيف ...؟!
* ألا تريد أن تعود إليها ... مثلاً .. أن تمشي في الشوارع وتتذكّر؟!
– عليك أن تكون في المكان حتى تعود إليه ...
* ولكنني أحب أن أعود إلى «زكريا» ... حيث ولد أبي وولدت أمي، ولم أكن هناك يوماً ..
– هذه «عودة» أخرى، نوع من «الأمانة» إذا أردت الدقة، أو الوفاء أو العناد ... وهذا ضروري وإنساني ومختلف عن رغبتي في العودة إلى عمّان، ليس لدي أشياء كثيرة عن عمّان...، عندما غادرتها طائعاً ومبتهجاً نحو القاهرة، لم تكن بالنسبة لي أكثر من شارع طويل وفي نهايته «سراية الملك» وما زالت كذلك ... أريد أن أعود إلى القاهرة، تلك مدينتي ... هذا يختلف، تماماً، عن عودتك إلى «زكريا».

متأخراً ، ذهبت إلى «زكريا»

فيما بعد سأتذكر غالب، في الطريق إلى «زكريا»، التي وصلتها، متأخراً، و«زكريا»، اسم قريتنا المحتلة منذ العام 1948. هناك ولد ابي وولدت أمي، وثمّة صورة باهتة، لا تفي بشيء، كانت في أحد أدراج البيت، صورة معذّبة، تتلخص مهمتها في إسناد كل تلك الروايات التي تتراكم في منزل العائلة، طيفٌ بعيد من أشجار حرجية وفي أقصى اليمين أشباح لبيوت منخفضة ...، هذا تقريباً كل شيء، ولهذا، ربما، بدت منهكة وباهتة ومغلقة، على صبرها العجيب، ليس سهلاً أن تكون مهمتها بهذه القسوة وأن تتحمل اتكاء كل هذه الذكريات المتضاربة وكل الحنين الذي امتلأت به الروايات .

كان لـ «زكريا» أكثر من مشهد، رواية أبي المبنية على الطريق والغابة وخطّ البحر المحروس من التلّ، ورواية عمي محمود المحاصرة، تماماً، في مقام النبي زكريا وحلمه المتكرر عن احتفال الجنّ تحت أقواسه فيما كان هو بين النوم واليقظة ...، لقد مات الاثنان الآن لم يعد هناك من يتذكر كل هذه الاشياء، ليست ثمّة أعراس للجنّ في أحلامنا ... أو طرق ضيقة وشائكة تذهب الى الغابة وتقطعها مثل خطّ زلزال، لم يعد هناك أولاد يصعدون التل ليروا خطّ البحر الذاهل، لقد أصبحوا آباءنا وماتوا .

رواية أمي المبنيّة على الوصف وليس على السرد تبدو أكثر دقّة، ليس، ثمّة، افتخارات هنا، الصمت والغياب هما النص، مقاطع قصيرة من أغنيات مرتجلة، مثل نحنحات في أطراف لوحة معنية بالتفاصيل... الحوش، العليّة .. العتبات الواطئة ... ورواية مبهجة عن الرجل الذي كان يسعى خلف حبيبته على الدروب الضيقة وهو يدلق زجاجات العطر، التي أحضرها من يافا، على آثارها .

متأخراً، ذهبت إلى «زكريا»، ... وعلى الطريق الرئيس، وهو طريق سريع وواسع كان، ثمة، سنجاب مقتول، سنجاب سحقته مركبة مسرعة، بدا الأمر غريباً، إذ ليس هناك أي سنجاب في الحكايات التي أحملها، ولم أكن أظنّ أنّ هناك سناجب في بلادنا، السناجب موصوفة بدقة وبرومانسية في أمكنة أخرى بعيدة ومتصلة بالسفر، ولكن الذي كان مقتولاً على الطريق السريع على مقربة من «زكريا» كان سنجاباً دون شك .

لأمر ما، ربما لأن عليّ أن أُنقذ الحكاية، فكرت أن السنجاب، ربما تسلل من رواية مجاورة، أو من الحرش على جانب الطريق .

لم تكن القرية مهدّمة مثل باقي القرى المجاورة، ولكن البيوت، بيوت أهلي، البيوت الموجودة في تلك الصورة الباهتة في الدرج، كانت قد أزيلت، تماماً، باستثناء مقام النبي «زكريا» المهجور وبيت أحد أخوالي، كما عرفت فيما بعد، ثمّة، خطوط تظهر في المنحنيات أو في انحدار مفاجيء للسفح، خطوط تظهر فيها حجارة البيوت الأولى، بقايا جدران مبنية من حجارة كبيرة غير مهذبة، إشارات قديمة وهامسة وممتلئة بالأسرار .

هذا كل شيء، تقريباً، فكرت أثناء العودة إذا ما كان كل هذا ضرورياً؟! ... فقد بدت تلك الصورة المنهكة، الصورة التي تتذكر القرية كما أتذكرها أنا الآن، أكثر قوة من القرية نفسها وأكثر قدرة على البقاء! بدا الأمر غريباً وقاسياً وممتلئاً بالتحامل .

حتى الصور الجديدة، الصور الملونة التي التقطها من أجلي «جمال الافغاني».. ظهرت خارج الحكاية، أيضاً، مثلما كنت أنا منذ وقت طويل، بالضبط منذ وصلت الى فلسطين فيما كنت أقترب بدون إرادة من الأربعين .

لم أرسل الصور الجديدة إلى أمي في عمّان، لا أظنّ أنّ ذلك سيكون مفيداً، الأفضل أن تستمر في حماية حكايتها من خلال صورة باهتة وصامتة، الصور التي تتكلّم لا تقدم حماية للحكايات، والحكاية ضرورية لها، أنا أعرف ذلك جيداً الآن، ولم أتمكّن أن أكمل ذلك الحديث الطائر مع غالب، لم يعد بالإمكان أن نتذكر، معاً، رحلتنا تلك ولا سفرنا الهائم في جنوب اليمن لأسابيع عديدة صعوداً من عدن حتى صحراء «سيئون»، حيث معسكرنا الذي أقمت فيه بانتظار عودتي إلى دمشق عبر الكويت، في حضرموت عبر

الطريق الصيني، المآذن التي صعدناها وبيوت «شبام» «المكلا» وسوق النساء والزوارق المربوطة على أدراج البيوت مثل خيول أليفة، حقول الذرة الفقيرة، وقصور السلاطين وحدائقهم ونخيلهم، قصر «باكثير» وممرّاته الخائفة وأشباح نسائه الميّتات. ومكتبات نائية قلبنا مخطوطاتها، وحواشي الكتبة والورّاقين على أطرافها المتآكلة والصبي الذي استعرت اسمه وتجوّلت فيه سنوات طويلة، لم يعد صبياً الآن، ... ما الذي جرى لـ «صلاح بهائي»؟!

مشاة الأيام الصعبة

ربما كان علي أن أتذكر أشياء كثيرة مع شاكر لعيبي، سأمنا الثقيل في عدن بين «البهرة» و«خورمكسر» وفندق «الغولدن غولف»، هل كان اسمه كذلك، مراقبتنا المسائية لصيادي السمك على شاطئ الخليج أشبه بجنرالين لا يكاتبهما أحد.
هذه المرة، وحيداً أصل إلى الحرب، تلك التي بحثنا عنها، منذ طفولتنا النائية عنا الآن، عشية ولدنا، نحن الذين تجاوزنا الأربعين، الآن، الذين تجمعّوا في عشيات لاحقة، على مفارق الطرق ومرافئ الأيديولوجيا، وإشارات الدروب، وإيمانات الدعاة الحزبيين... كل ما أوصلنا مشاة وفرادى إلى بيروت، في مطالع السبعينيات ونهاياتها...، هناك صنعنا حربنا، دوّرناها بأصابعنا... وزرعنا في تربتها أحلاماً ضالّة. لبيروت أنها رضيت بالتجربة وبنا.. نحن مشاة تلك الايام الصعبة، ولها أنها علّمتنا الحرب والشعر واختيار المنفى.
أصل هذه المرة، وحيداً، إلى الحرب، بعد دورة كاملة على الأرض، ولدت في «بيت جالا»، وعندما رجعت بعد أربعين سنة، كانوا ما زالوا يقصفونها.... نصل، معاً، الحرب وأنا، إلى «بيت جالا».
الفتية الذين يندفعون، نحو المدخل الشمالي لـ «رام الله» و«البيرة»، متجاوزين تمهلّي وحذري وقلقي عليهم، الفتية الذين وجدتهم هنا، لم يغادروا ولم يبحثوا عن أعدائهم بعيداً، كما فعلت! البوصلةُ التي كانت، دائماً، على النافذة.. الدم الذي عبرت إلى جانبه، وتبادلت معه استراق النظر، الإشارةُ المذهلة لطريق ضيق ووعر وضروري.. الضوءُ في العتمة، والبكاء في غرفة القتيل، صورة «محمد» وهو يحاول الدخولَ في خَاصرةِ والده، ندمه الخاطف في أنه كبر قليلاً على الساتر...، في الليل أمد يدي لأغطي قلبَه، دون جدوى!!
وحيداً أصل إلى بيتي في «بيت جالا»، أو «رام الله» بعد أن لم أهتد إلى تلك الحرب، التي تجعل من الحجارة ذهباً، ومن التراب رفيق حراسة... فأجدها على العتبة، بينماً أبدو أكبرَ قليلاً، ربما، من أن أكون محارباً، ثمّة وقت كثير تمّ تبديده في الطرق...
أمجد ناصر الذي يبدو قلقاً على الهاتف، لأنه لم يكن هناك، ولأنها، ربما، المرة الأولى، التي يقصف فيها الأعداء آسيا، دون أن يكون في مدى رماياتهم، غالب هلسا، ميشيل النمري، جميل حتمل... كل أولئك الذين قتلوا، أو ماتوا، أو انتحروا، في ردهات ومتاهة الثمانينيات وما تلاها ... يعبرون إلى مداخل الموت، ويتجوّلون بين هياكل السيارات المحترقة، التي أصبحت سواتر لأجساد الفتية.

أعبر في الليل، في آخر الليل ... شوارع «رام الله» الخالية إلاّ من دوريات المقاتلين، أطفئ الضوء، لأنهم يطلبون ذلك...، المطر الذي سقط في الأيام الأخيرة بدا مرتبكاً.
فقط الفتيةُ الذين يعبرون في الليل، مثل هزيع حيّ، في العتمة.. هم، فقط، يمكنهم السير في طرقات الليل هذه، بينما أبحث في ذاكرتي دون جدوى، عمّا يشبه كلّ هذا.

الطرق، أيضاً !

للصاعد نحو القدس يبدو الأمر وكأن، ثمّة من ينتشلك كحمل ثقيل من بئر عميقة، ... أو كأنك تجرّ خلفك صاعداً كتيبة هادرة من الجبال البيضاء...، هكذا تصعد الطريق من «أريحا» نحو «القدس» مروراً بـ«الطيبة» عبر متعرجات ضيقة وخطرة بموازاة مقاطع الجبال وشقوق الأرض..
ومثل مشهد عبثي، تماماً، تبدو في الأسفل شبكة من خنادق المشاة المنهارة، والمتروكة في تكوينات الملح الجرداء هذه
خوذة الجندي الأردني المبقورة، والصدئة، تلك التي لم يأخذها أولاد البدو وعرب «الجهّالين»، كما أخذوا أسلاك الهاتف ومطرات المياه، وصناديق الذخيرة الخاوية، والمعلّبات والأحزمة العريضة...، وكتّافيات الضباط ونجومهم...، تبدو مثل شاهد يائس على حرب لم يَروها أحد.
في الأعماق السحيقة للوديان، تقبع هياكل الآليات... مثل عطايا بائسة، وحيدة ومهزومة، كأن أحداً لم يلق جهداً أو زهرة أو تمتمة سريعة للفاتحة، من أجل أولئك الذين لم نعرفهم وهم يجفّون في الهاوية.
تختفي الخنادق المتهدلة بانتظار حرب لا تحدث، خنادق وحيدة ومكشوفة لمشاة وحيدين تجاوزتهم الحرب، وخطوط الجبهة، والطائرات ... فيما نحن نواصل صعودنا، نحو «رام الله» ... تتبعنا الجبال..
وعما قليل ستتضّح أسوار القدس وجدران المستوطنات التي تطوّقها.
أفكّر، غالباً، أن الرواية الحقيقية في فلسطين تكمن في الطرق، «هنا» يبدو الأمر أكثر ضرورة وعمقاً، شيء يتجاوز الوصف البارد للمرور، أكثر عمقاً من مجرد دروب تصل بين أماكن، أو تقطع اتجاهات، تصعد جبالاً أو تهبط في وديان غريبة، الأمر، أيضاً، ليس البحث عن جماليات بالغ فيها شعراء ورواة رومانسيون...، أحياناً يصبح المشهد مؤلماً وعنيفاً وخارجاً عن السيطرة، ثمّة طاقة باردة ومريرة، تعبر أو تأتي من التكوينات المذهلة، والمتناقضة هنا، سبيكة مؤلمة من الخوف والإيمان والتمرّد ... شيءٌ من الركض والركود، من الرضى والانتحار ... اتصال «السدر» و«الزيتون»، أو هو الارتباك الذي يذهب إلى الحكمة.
أذهلتني الطرق هنا، .. لم أذهب عندما وصلت إلى فلسطين في ذلك المساء من صيف «1994» حيث تؤدي الذاكرة إلى المنزل الصغير ذي الطابقين في انحدار السفح في «بيت جالا».
هناك ولدت وعبرت السنوات الأولى، تلك التي لم يبق منها الآن سوى مشاهد مشوشة لركض مرتبك تحت مطر غزير.
ومثل مغامرة معادة أصعد الآن الجبال المحيطة بـ«بيرزيت» وأحدّق في مباني الجامعة وظلال الأحراش

الغامقة حيث قرى كثيرة تتسلق السفوح شديدة الانحدار ... بينما جدران المستوطنات تبدو مثل زواحف باردة على أكتاف الجبال.

أذهب إلى قرية «جيبيا»، وفي الطريق الزراعي الذي شقّ حديثاً عبر بيوت «برهام» ومقام وليّها الصامت، أنظر نحو الوديان السحيقة فألمح طريق الغزلان وقد يسعفني الحظ برؤية ظلالها القلقة وهي تمرق في خطوط الزيتون ونباتات الجبل العنيدة.

من أقصى المرتفع يمكن مشاهدة شبكة هائلة من الطرق الصغيرة المتربة وهي تشقّ سلسلة الجبال الغربية لتشكل في النهاية تكويناً أقرب إلى المتاهة من الممرات والمسالك والدروب والشعاب التي تصل بين البلدان والقرى والبيوت ... تلك التي تذهب جميعها باتفاق مضمر وعميق نحو القدس.

كأنها تكوين مكمل لاندفاع الأرض وحماستها العميقة، الطرق هنا، في هذه الجبال تشبه الرواية، تتشكّل مع المكان وتنحني لانحناءاته، وكأنها تخشى أن تجرح الأرض وتجعدات جسدها القديم.

تلتف الطريق من أجل شجرة وتنحني حول صخرة وتقف، تماماً، أمام عتبة بيت.

طرق لا تأخذ من الحكاية أكثر مما تحتاجه للمرور والتنفس.

في البداية كان الأمر أشبه بمغامرة مأمونة لسائح فضولي، أو اختيار مرتبك لمنفي سياسي يحاول أن يرى كل شيء ليضيفه إلى مذكرات ناقصة ... وساذجة، حيلة للتأمل وتفادي الحكاية ...، ربما.

وإذ تصعد المروحية الداكنة من خلف التلال، سوداء وعدوّة وقاتلة...

وإذ تمتلئ هذه الطرق بأجساد الفتية ومرورهم المذهل...

يتحوّل المكان برمّته إلى كمين مؤلم من الخوف على كلّ هذا.

بالنسبة للعائد إلى هذه البلاد تبدو الطرق وكأنها التشكيل الأهم في الأرض، أكثر أهمية، دون شك، من المنازل والأحراش والوديان ذات الأسماء الغريبة، وديان تحوّلت إلى طرق وممرات، «وادي النار» الانحدار والصعود الصعب بين أريحا وبيت لحم بعد الالتفاف على القدس، وفي القمة الاخيرة عندما يلهث كل شيء الناس والجبل والحافلات يبدو الدير في «العبيدية» صامتاً وساكناً فيما يشبه معجزة من الحجر .

أو «وادي الحرامية» الذاهب الى الشمال نحو نابلس حيث مخفر مهجور للشرطة الأردنية . أين ذهب الشاويش، لا شك أنّ شاويشاً ما كان هنا قبل ثلاثين سنة وشرطة وقطاع طرق في الأعلى بين الصخور.

ربما لهذا أبدو مثابراً على الكتابة عن هذه الأشياء.

الكائنات، الطرق ... لم يكن ذلك مهماً فيما مضى، «هناك» حيث كنت، ولكن «هنا» تبدو الطرق ضرورية جداً وأساسية في المشهد .

أحياناً يأخذ الأمر شكل الدخول إلى كوكب مختلف وخاص ومعزول، ... هذا يأخذني إلى عمّان في منتصف السبعينيات، كان العزيز ميشيل النمري، الذي أطلقوا عليه النار في أثينا بعد عشر سنوات، منهمكاً في تأسيس «جريدة الاخبار»، مع جيش من الكتّاب والصحافيين الشباب بـ«وادي صقرة» في عمّان بقيادة راكان المجالي، حضر فنان كاريكاتير من مصر للمساهمة في الفريق ... ومنذ اللحظة الأولى بدأ يرسم أدراجاً وسلالم، كانت عمّان بالنسبة له سلسلة لا تنقطع من الأدراج التي تتسلق الجبال أو تهبط منها

...، سلالم وأدراج، بدا الرجل مذهولاً بما يحدث حوله حركة الناس الصاعدين بأكتاف منحنية أو الهابطين من الأعلى بمودّة ومرونة ... وهو القادم من القاهرة المنبسطة .
كان ميشيل أولّ من لاحظ ذلك ...، فجأة تذكّرت الفنان المصري وأدراج عمان، تلك التي لم نفكِّر بها، نحن، الذي كبرنا إلى جانبها ومعها وواصلنا صعودها وهبوطها سنواتنا الأولى وشبابنا المبكر غير مبالين بغرابتها التي أذهلت المصري .
إذن هذه هي الطريق التي تهبط إلى أريحا بموازاة «وادي القلط». قبل أكثر من ثلاثين سنة وقفت في جبل التاج بـ«عمّان» أمام ملصق علِّق على مدخل منجرة، ملصق بالأبيض والأسود يحمل «16» صورة بـ«16» شاباً أظنّ أصغرهم في السادسة عشرة ... وفوق في أعلى الملصق عنوان عريض: «شهداء معركة وادي القلط» ثم بخط أصغر تفاصيل المعركة، يعني «وادي القلط» بالنسبة لي منذ تلك اللحظة ممراً معتماً يمتلىء بالنباتات القصيرة والصخور الجافة ... والانحدارات الخطرة، الآن يبدو الوادي وعراً أكثر بكثير من تلك الحكاية، لم يبدد مروري فيه ماشياً وعورته والتباسه وعتمته، وبين صخرة وأخرى يلمع توقع سرية الشباب الميتة تلك بأجسادهم الصغيرة، غالباً، ووجوههم المحايدة بالأبيض والأسود، يبدأ الوادي من قرية «عناتا» المحاذية للقدس وينتهي على قمة جبل التجربة حيث «دير أريحا» المحفور داخل الجبل، المياه القليلة التي تتساقط من الصخور لتشكل جدولاً غريباً ينحدر نحو نهر الأردن ... تبدو مياه مختلفة، وبالنسبة لي يشوبها خيط الدم الذي تركه الفتيان الـ«16» قبل أكثر من ثلاثين سنة .

عتمة وأربعة أسود

يبدو الشعر مكاناً غامضاً تماماً هذه الأيام، صعباً وضرورياً في آن، ومثل خلاص شخصي أبحث عنه بينما يقصفون مداخل رام الله.
الرياح التي هبّت منذ أمس حملت دخان قنابل الغاز نحو وسط المدينة وأطرافها القصية، تلك التي صعدت على تلال متلاحقة مطلة على البحر أو القدس.
أتخيل رحلة «راشد الحدادين» من جبال «الشوبك» قبل خمسة قرون عبر سلسلة الجبال الشرقية ثم انحدار «الغور» والصعود نحو جبال القدس حيث مدينة «البيرة»، هناك انتهت رحلته في «خرابة» هي بقايا قرية رومانية... حيث دقّ أوتاد بيته وأوقد ناره وطرق الحديد مع من تبقى من أفراد قبيلته، أولئك الذين تقول الرواية انهم لم يتجاوزوا الثلاثين فرداً.
حيث اختار بيته كان بإمكانه أن يلمح القدس وأن يراقب نوارس تصل من البحر في رفّات متعبة.
هل كان يعرف، راشد الحدادين، أنه يضيف إلى سلسلة مدن الجبال الفلسطينية مدينة جديدة سيكون اسمها فيما بعد«رام الله»؟
تلك السلسلة التي تبدأها نابلس فرام الله ثم القدس فبيت لحم والخليل.
الهواء الممتلئ برائحة الغاز والبارود ودخان الحرائق ودواليب السيارات يعبر في رئة المدينة، والأولاد

الذين ذهبوا إلى الحواجز وأسيجة المستوطنات لن يعودوا كاملين، في ضحى الغد، كما كل يوم سنشيّعهم، نحن الأكبر سناً.
أذهب إلى الحاجز مساءً، ثمّة حياة ثالثة، نبتت هناك استعارة من الميثولوجيا أو إعادة ترتيبها في مشهد معاصر، عالم بكامل علاقاته يتراكم هناك، أيضاً، سيارات الإسعاف، الأطباء المسعفون الميدانيون، «مصممو» المتاريس، المراسلون الصحافيون .. جالبو الحجارة، المعمل الصغير في الزاوية الذي أقامه أولاد لزجاجات المولوتوف...، في الأمام راجمو الحجارة ... والزجاجات...، وسط كل هذه الفوضى التي تشبه خلية نحل يكمن نظام خاص وتوزيع عمل واضح...، باعة متجولون تبعوا المدينة للحاجز ... حملة إعلام ومتفرجون ...
أفكر أن الشعر يشبه هذا، أيضاً، النظام الخفي الذي يكمن تحت هذه الفوضى، ... الشعر الذي أبحث عنه بدأب نملة وعنادها.
في الخلف ما زال الهواء يحمل رائحة الغاز نحو الشوارع الداخلية للمدينة وليس بعيداً عن وقفتي تتكوم حقائب مدرسية لأولاد وفتيان تركوها أمانة بين يدي طفل قلق لا يخلو بقائه من ملل من بقي مرغماً في مهمة من الدرجة الثانية.
أفكر فيما أنا أحدق في كومة الحقائب تلك، إن كانوا سيعودون جميعاً هذه المرة، دون نقصان ليستردوا حقائبهم ... تلك التي لن يحملها صاحبها بعد؟
بينما الطفل، الحارس، يراقب تأملي له ولها بحذر بريء، وفيما يشبه الاعتذار يبدأ بعدها واحدة واحدة من جديد.
في عودتي أجمع كل هذا، «منازل» راشد الحدادين وناره، المدينة الذي ذهبت إلى الحاجز، العربات والسوق والمعمل الصغير... حقائب الأولاد وملل الحارس نافذ الصبر ...، الشِعر الذي ينأى، تماماً، عن اليدين .. بينما الهواء يدفع زوابع شاحبة نحو قلب المدينة.

الأسود الأربعة في ساحة المنارة وسط رام الله، وحيدة منعزلة، تماماً، عن المدينة في الثالثة صباحاً من الأول من كانون الثاني لعام 2001، باردة وضجرة، أيضاً، من وقوفها المحاط بالصمت والعتمة، الأصوات التي هدرت حولها وفوق أجسادها طوال اليوم تتراكم على أرضية الدوّار وحجارته، تسيل عنها لتذهب خاوية دون أصحابها، أبواق السيارات ونداءات الباعة، إشارات شرطة المرور وصياح الصبية ... المسيرة النسائية وأصوات الرشاشات الثقيلة القادمة من جبل الطويل والمدخل الشمالي للمدينة ... تتساقط على رخام الأرضية والنافورة الصامتة ... فيما تعبر مسرعة مركبات طائشة في هذا الليل... أو تصل شرارات من نار أشعلها الحرس في الزاوية المقابلة ... وأعبر أنا متمهلاً وكأنني أعيد إحصاء المدينة والتأكد، كما كل ليلة، من أنها أربعة أسود كاملة.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في رام الله.

تبكي السماءُ على حدقاتِ الفراشةِ

فيصل قرقطي*

-I-

الدم البارد فضيحةُ القتل، والجسدُ مهرٌ معتوه؛ ترتّله صحارى الرمل فرساً في مهبِّ الريحِ، تسبق رطانةَ الشاعر. والعاشقُ يتَّحدُ بنبوءاته.
على اخضرار الموال يزفُّ بشرى البرقِ للرعد، والغيمَ للمطرِ، وينكفئ مثل شارةِ الموانئ المطفأة آخرَ الليلْ.
هل تلدُ النجمةُ جسداً من نور؟!
والقابلُ يَعْشقُ أن يُبتَلى الوقتُ بشجونه المسحورة ببخورِ الماضي.
كلَّما أينعَ الليلُ لَمْلَمتُ الظلمةَ عن بؤبؤَ العينِ، موالَهُ هباء؛ يترجَّل عن الصوتِ، ليفرشَ عتبات الروحِ بالتراتيل الفضية كلمعان برقِ سجادة الصلاة.
الدمُ الباردُ، أيقونةُ المستحيل، نَواحُ الهباءِ في الظلمةِ، ظلمةٌ تقطّعُ أوصالها للمغيبِ، والمغيبُ سادرٌ في اشتهائه الذي لا يُشتهى.
الترابُ دمٌ من نياشين،
والصوت غائب في مصباته ؛
ليس للرئة معنىً
وراءَ انقطاعَ اللهاث
فبأي نشيدٍ أَلْقى ذاتي المنتحرة ؟!

الجسد يَكْفُرُ بعظامهِ، ويقهرُ بانسجامهِ الدمَ اللامعَ في محيط العدمْ. الجسدُ مَرْوحَةُ السنينِ كماالبرقُ

يحطُّ .. وكما البرقُ يغيب !
الدَّمُ الباردُ؛ أغنيةٌ للثكْلِ الضارعِ في جنائزِ الضحك.. والأُنثى برقٌ عصيٌّ على السماءِ تحتَ ظلال النجوم الباكية:
مَنْ
يترجَّلُ
اسمي
قبل السقوط ؟!
ومن
يَقْبرُ
دمي
قبل الازدهار ؟!

ها إني أقبضُ خصْرَ الريحِ؛ وأرجُّ الأرضَ بشهقتي كطوفان لأعلِّمَ الشبقَ رعونةَ الحاضرِ الضائعِ بين سلالم الوجد ورعد الأكمّة .
للمستحيل دمٌ باردٌ يلوِّنُ الريحَ، ويعصر الأفقَ شفقاً.. شفقاً .

من علَّمَ المجدَ لعبةَ التباهي
والسماءَ رعشَ المطر ؟!

الأرضُ رجفة الزلازل
«أدونيس» جرحُ شفرَة الصوت
و «درويش» الصمتُ بعَد زلزلة القلب

تُرى من علمني ثغاءَ التاريخ تحت بلوطةِ مروة، حتى اشتباكِ اللَّحم مع الانفجارْ ؟!

مَنْ
علّمَ الوردةَ
أسرارَ الذبولْ ؟!
ومَنْ
علَّم الطعنةَ
ارتشافَ الدم ؟!

هي ذي نواقيسُ القيامة تدقُّ.. تدُّق مَنْ علمها سطوة المسافة؟! وزلزلة الحياة ؟!
والحياةُ جرحٌ أخضر يغَلي بمرجلِ القلب، والحدائقُ غافيةٌ

على شرارة الوجْد؛ كيف تنامُ البساتينُ
وأرْعى الجثثَ والنَارَ وحدي ؟!
النازلات والعاديات،
لا الموبقاتُ، والشامخات
هيّئن لي صفيحَ جهنم، من أول الحريقِ، هيّئن لي الحريقَ جساراً تكنَّ على فتك حلمي، ليرتعشَ الضوءُ فجرا، وينتسبَ العمرُ معنىً لمعناه، يستبصر الخائبون جنونَ الرضى.. ويفاعَة حواء .
حواءُ منْ مرمر؛ صقلَتْ نارَ أكعابها
شمَّ الندَى لُهْثَهَا فاختنقْ

والطواويسُ شرَّعت اليومَ كبْرَاً لها فطواني الروى مدلهماً شغوفاً، نزيفاً، شقيّاً، تئنُّ على موجِ خاصرتي السماواتُ وينتحرُ الطورُ قَبْلَ ارتعاشةِ جفني .

أجيئك من زمن كاهنٍ في النبوءةِ والشعرِ، أدفنُ تابوتَ مثوايَ فيكِ، أزخْرِفُ اصدافَ موتي
بشهقَ الولادةَ
أُصَبِّحُ ليلاً
وأليِّلُ صبحاً.. وتبكي السماء على حدقاتِ الفراشةِ
من علَّمَ الصبحَ
هذا الدهاء ؟!
من علَّمَ المستحيلَ الضياءَ
ومن علَّمَ النورَ هذا الظلامْ

أجيئك مشتبكاً بوعود القيامة، ورجفة أمي، مشتبكاً بتميمةِ «حواء»، مشتبكاً بغشاوةِ «آدم»، منغلقاً من نعيمِ هَواه، ومنقبضاً في صنَاديقِ نجَواه
يا عيَن كفي
فإن لم تكفّي فشقّي
عن الدمع إن دموعك نارٌ
تلظَّى السراطُ بها
وانكوى فيه رجفي
خُلِقْتُ لأعرف سرَّ المماتِ

وقبرَ ارتجاف التشفي
وسرَّ الصباحَاتِ في الليلِ
أو رجفة الليل
في حُسْرِ خُسَفي .

أجيئك منفلتاً من رؤاي، ومعتركاً في وجيب دجاي، أُعرّي طقوسَ العذارى لتشهقَ في سرِّ هذا الفتى .. سرِّ نجَواي .
يا حنوَّ المسافات، شرَّدني الصبرُ، والمبتغى ذابَ تحت رماد جروحي، أمرُّ على وشمها كالتسابيحِ أقبرُ فاتحتي .. وأزكيَ الدعاءْ .
يا حنوَّ المسافات، شردني الصبرُ والمطرُ يفتح أنوالَهُ لبكاء الخريف، ويعزفُ لحن الأزيفِ من الثمرِ المرِّ. والمطرُ الغرُّ يغزلُ موالَهُ في انكسار الصباح على دعة في اَلبكاءْ .
يا حنوَّ المسافات، هل ولدٌ شطَّ عن غيّه في ارتجافة سوِّر واللبناتُ هتكْنَ ضراعاتِ وجد المسافات، فأُتلقَ الغيبُ ومثل سراط يؤجِّلُ تحنانهُ ويُزَفُّ على رَتْلَةِ الصلَواتْ .
وكلُّ ارتعاشي صلاةٌ على مذبحِ العمرِ، كيف أفتِّقُ هَذا الفراغَ لأبدأَ مِنْ حيثُ لا يُبتدى، وأكون الصدى في وجيب الرصاصْ ؟!
هبي رجفةَ الأفقِ صوتاً
يجنُ الهباءْ
هبي جنةَ النار أغنيةً من عصير البلابل محروقةً ..
تستغيثُ، وتعزفُ لحنَ الضراعَاتِ في إفكها، وتغيثُ، وتجأرُ فيَّ السنون لعلّي أشطبُ ما يغتلي في عراءِ السكون .

-II-

أيها الموت
مطرّزاً بياقوت الفقد.. تأتي، وتذهبُ، على عجل، كأنك قرصانٌ ضائعٌ بين الموج.. والريح.. تمشّط أهدابَ القطيعة، فيغترُّ نبَضُكَ الظمآنُ للعطرِ بين تربةٍ.. رسمنا جباهَنا عليها أختاماً للزمنَ.. وبين صراخ الزيزفونَ الحاد في درجاتِ الصوت .
أيها الموت !
كأنك من زبرجد المكان تنفلتُ لتقبضَ ناصيةَ المكان، كأنك شحاذ الشهيق.. والزفير، ترتفعُ عن مجد النبض لتصل حافةَ الهاوية.. والهاويةُ أنْتَ.. دمٌ جامدٌ أنْتَ صوتٌ ساكنٌ أنْتَ.. صراخٌ ذابلٌ أنْتَ، وظلامٌ لا يتفتحُ أبداً في وجعِ القطيعةِ أنتْ .
أيها الموت !

عرباتُك من مَعْدَن الدمعِ.. صاغَهَا حدادو القرون.. ونسجوا مساحات الظلال في قدومكَ.. ورحيلكَ، كأنكَ عدَّاءُ السنين، تنهَبُ الأعمارَ.. عرباتُكَ التي تصطكُّ على عظام تلمعُ كالذهبَ في وجع الترابْ، وأسنانُكَ تلمعُ كنبض أيقونات السَّحَرَة ومدائح الغائبينَ في ليل التكهّن.. عرباتُكَ تلَكْ.. تنهبُ الغيبَ بعجلاتها المتثاقلَة كأنها قطيعُ وعول عند حافة الجبل، كأنها قطيعُ وعول على رقاب النبض، عرباتُكَ تلك أسفُ العفَّةَ فيَ الختام، سرطانُ الضحك فيَ مجمرِ الوداع.. بكاءُ الغيمِ والغيبِ، نداءُ ثكالَى الحسونِ.. وهن يَنْبشْنَ وجعَ القرونِ على مأساةِ الجسدْ .

أيها الموتْ !

صوتُكَ الكاهنُ.. الكافرُ.. يتلذَّذُ في النداء دائماً.. ويُمعنُ في الخسران.. لا أجنَّةٌ من دون خسران، وخسرانُكَ الأبهى في رحيقِ الولادة. خسرانُك المنتَحرُ في لعبةِ الطفلِ القماشيةِ تلكَ التي تظلُّ تنبضُ تحت الحريق .

كأنكَ عرَّافٌ مهزومٌ يصرخُ، ويصيحُ في هالةِ العدم .. خذلتكَ الطفولةُ من أولِ حرفٍ حتى آخرِ ومضةِ حريق في قماش اللعبةِ .

أيها المُوت !

ذراعاك منْ مَرْمَر الوجود.. تلتَقان على عنق المعرفة.. تصطفيان الأبهى في الصراخ، والأجمَلَ في النزف.. والأكثرَ صَمتاً فيَ تداعيات الكلامْ.. الكلام المَنهوب من ثرائه في المَحاورات، وعلى موائد التفاوض.. تهتَك الوقتَ والجملَ.. والسعالَ.. والابتساماتِ الميتَة تحتَ حرَيَر المجاملةِ.. وتَصعدُ كأنَّكَ عَريسُ الوقت تلتذُّ بما انسَكَبَ من احتمالات للبدء ثانية.

وتبدأُ ثانيةً كأنك تولَدُ لأَوَّل مَرة عدَّاءً شرهاً تعمي العيونَ والقلوبَ وتنخُرُ العظامَ؛ وأنتَ أنت تنبضُ تحت التراب كأنَّكَ الترابُ الغَامضُ.. كأنكَ الصراخُ الذي لا ينتهي، كأنك الغديرُ الذي نشفتْ أنساغُهُ؛ والبحيرةُ التَي سبَّحَها العدَمُ. كأنَّكَ الصوتُ الطالعُ من فيالق المعدن وهي تدهن أجسادنا بلمع النحاس، كأنك النحاسَ يتوحَّدُ في اللّحم.. واللّحمُ الفلسطيني الطري الرجراجُ البهيُّ الأخاذُ.. البرعم الصادقُ الصافي المنفتحُ المسامات على كل الاحتمالات اللَّحم الغنيُّ الفقيرُ اللذيذُ في سحرِه، العاشقُ في سرِّه، الفاسقُ حدَّ العبادةِ.. اللَّحَمُ المرتجفُ تحت ضربات الجوعِ والرصاص .

أيها الموت

علامتُكَ الفارقةُ خارطةٌ تنبضُ بالمستحيل من الزيت والزيتون، علامتك الفارقةُ دبيبُ الصرير في الممرات واتساعِ الشوارع والمنحنيات.. دبيبُكَ الواقفُ وراءَ الرئة.. خلف الحياة.. يمعن في التقدم نحو القتل.. القتل الأرعن المنفلت من توأم الجريمة.. المتعالي على الضحية، الواقف بين دمار الوجد ورحيق الحياة.. النابض تحت حجارة رام الله.. تلك التي تعلي شأن البيت وتخفض اللهاثَ الأخيرَ على حمَّالاتَ الانتهاء .

دبيبُكَ المعمِّرُ في الضجيج.. دبيبُكَ المنقبضُ في النزيف.. الممعنُ في ارتهان الجسد لانتهاء اللهاث واللهاث!

ماذا سأعمل به؟!

أهو رهانُ الرئةِ على الغيب ؟!

أم شهقةُ المساء على تعبِ الفجرِ؟!
أم أنه المسافةُ الَضائعةُ بيَن سنوَات القهر.. وسنوات الوصول؟!
قل لي
أيها الموت
قل لي
وافتح أوراقَكَ كما ينبغي على هذه الأرض فنحن سواء
أنا بعقّة خطواتي المتثاقلة
وأنت بجَبروت حياتك وحكاياتك الملتوية.. وجحيم قبلك الضالة وحبّك المخاتل المعتوه لهذه الأرض لأنك تحصد كلَّ ما عليها.. ومن عليها.. وأنا زرَّاعُ ما عليها، فارأف بها قبل أن ترأف بي، أو مثلما أرأف بها .
أيها الموت
طاعونُكَ شهقةُ الإسمنت، حدادُ الشمس في عزِّ آب، ورجفُ المطرِ في عزِّ كانون، فماذا تبتغي إذاً ؟!
آيةَ الكلام؟! ذلَّ القطيعةَ في الوجد؟! حصارَ التراب في التراب؟! قتلَ الرصاص في الجسد؟! أم مأتمَ البلاد في البلاد؟! طاعونُك حلمٌ شاردٌ من قميةِ الاشياءِ والنباتِ والمعدنِ والجسد!
أيها المَوت
عدني.. وصافحني بما ملكتْ يميُنكَ من حرائقَ، وما ملكت يميني من زهور لنقترب من روايتنا التي هي أمُّ الروايات ولنعترف بجديلة الضوء فلسطينيةً كانتْ، وستبقى حتى الأبدْ .
صافحني بما لا تملك روايةُ الأرض من حلم وبما ملكتْ هذه الأرض من جنازات لألمَّ عن نثاري الفذّ شجاعةَ القبول بكَ، وبكلِّ هذه الجنائز التي تعمِّرُ في صوتي مدائنَ من جوعٍ وحصَارٍ وحواجزٍ، والتي تعمّر مهرجانَ البقاءْ .
صافحني بيديك.. لا بالسلاح.. وقبِّلْ هذه الأرض بدموع عينيك، وامسح عن ثراها البارود وجنازير الدبابات، طهِّرْ دعارتَك الوطنية من الادعاء الأعمى، وافتح بصيرتك لحلمِ الطفولة .
أيها الموتَ
أيها الوغد
تقتلني لا لتحيا.. بل لكي لا تموت
أيها الموت
عفةُ التقصي في الضياعِ، منارةُ الجنونِ في ليلِ الجحيم .

-III-

عطبٌ في الروح، تخلع أرداءها الغيومُ، راقصةً في محالك الأنيابِ، تحلِّقُ بعيداً تحت أنين الغبطةِ في المدى فوقَ قيافه الضوءِ، وفي معتركِ الأبدية .

هي ذي تمائم النجم، تبكي على حوافي الطُهْر، تعلّقُ أصدافَ الدمعِ على حبالِ المطر .
أمطر الانتظارُ برقاً، غنّى حُداءَ المجراتِ، أيقظَ المسافاتِ من سباتِها؛ شدَّها من شعرِها الطويلِ لابتلاء المهدْ، واسترق السمعَ للآلهة .
عطبٌ في الروح، لمَّ حزنَ المدائن التي تصّاعدُ من بخارِ المعاجم.. للشارع.. يمتد أكثر من نباحِ الضوء .
والهياجُ المعمِّرُ يَشقى والضوءُ يشقى، والشمسُ تشقى.. تلك الغافيةُ تحتَ أردانِ القطيعة .
عطبٌ ينبري مودعاً آخرَ العابرين، تحت كستناء الليل، وعويلِ السواد الأعمى إلى حانات القهر الآدمي .
عطبٌ مشتعلٌ تحت الجلد، رسم دُخَانُهُ الأسودُ المشهدَ المنحوتَ من رصَاص الرضاعة بكلِّ عفتِهِ ودنسه.
أعطى عناوينَهُ للزمان، وبكى تحت حروفي الخضراء الأكثر بهاءً من بساتينِ الجنة .
فبأي حرف أعرِّفُ الاخضرارْ ؟!
سوادٌ فاجعٌ غطّى تمائمَ الدمِ في عفةِ المنحدر. والخطى تصعدُ خفافيشَ من معصيةِ الضوء إلى منارات المكان ..
المكانُ الملوّعُ بالآس والجثث
أعلنَ بشارةَ الانتهاء القريب
بعد قوس من اللهاثِ أو أدنى من مشيَخةِ السنين
الانتظارُ دَمٌ فاسدٌ في عراءِ الذل
شيطانُ التوجس
اخضرارُ الزغب في صوتٍ مجهول
عصافيرٌ بلا ديانة
ونباحٌ بلا قطعان
رذيلةٌ بلا جسد
حياءٌ صارخٌ في البعيد.. البعيدِ
حياءٌ يرتِّبُ أسبابَ الحداد .

والحروفُ شارةُ الصليب المعقوف، عذارى فقدْنَ الأمان، دمعٌ طعينٌ في إسار الوجد، شيخوخةُ الصوت في النداء عكّاز الخطوة المحتضرةَ، جدولٌ أعمى في يقين العدم، تضاريسُ الوجع، مهاراتُ الغناء في بُحَّة الصَوت، ونحول الجسد في التابوتْ، الحروفُ تابوتٌ في الشهادة.. وشهادةٌ في التابوتْ .
والمدينة أهي إثمُ الرحيلِ؟! بئرٌ من طلاسمِ المغفرة؟! صبايا هتكْنَ مواعيدَهنَّ للا شيء وغزلنَ صوفَ الأجداد للا شيء؟!
المدينةَ حفرةٌ في دروب القطا، غبارٌ في حلقِ التسكعِ ضجةُ السكينة وسط حشدٍ مهزوم، يراع مهزوم، وإشارات ضوئية، وحاراتٌ منسيةٌ مهزومة .
المدينة بكاءٌ بلا صوت تحت الجلد، يرمي أفخاخَ محنتِهِ لمغيبٍ أكثرَ لمعاناً من الحضور، وأكثرَ تمرداً من ندمِ الرحيل في بئر السنين .

المدينةُ تجترُّ هواجسَ العابرين، تحتَ سنابك أقدام الهياج. والهياجُ دمُ المغفرة، يعمِّرُ في عمر الرذيلة المشتعلة، دمٌ في حيضِ الزمن. دمٌ في مخالبِ الاغتصاب، دمٌ على وجهِ فريسةٍ فقدتْ طلاسمَ بهجتها، وبريقَ محنتها في أتونِ البقاء .

الهياجُ دمٌ عاثرٌ، نمرٌ يكظمُ أسنانَ السنين بالغيض، وجع في الرحيل الأخير للافتراس. الهياجُ ندمُ العذراء يزيِّنُ ثآليلَ الصمت . والهياجُ جدارٌ يشيخُ على مهل في وحدته، بيتٌ يتصدَّعُ في أول الفجر قربَ شاطئ مشلول. والبحر سلَّمُ الرجاء الغفور، سلَّمُ المسافات في فم الزبد، عشبةُ السنين خضراءَ.. خضراء.. البحر برهانُ الحياة على غيِّها في يباس الشهيق، برهانُ الأكيد، غرغرةُ الماء في العطش، غثيانُ الرمل، عطشُ الصحراء، مدارُ الارجوان في الارتواء، جنَّاز السمكِ الفضيِّ يتوسَّلُ الماءَ عمقاً.. وقتاماً ليلجمَ شبقَ العابرين من موجة.. لموجة، ومن برهانٍ لبركان .

العابرونَ جنائزُ الأيام.. يقذفُها الحنينُ في صحائف الغرابة.. في الحرف صيارفةُ الفجر. ندَّالُ الليل المقهور، عذارى الجحيمِ الأول للبشرية، قطارُ العائدين من النجوى للقيامة. شروخُ الجدران، مساوئُ السمنة في السكّر المُر. زلزالُ الضياعِ، وزيت قنديل قتيل .

العابرون جماجمُ من قطنٍ، قطنٌ من جماجم الأجداد، بقايا أسرارِ الملوكِ، وهلاكُ الأبناءِ في عبث الأقدار.

-IV-

للرصاص الطائش معنى الذبح

والقتلُ في شرعة القانون جريمة. والدمُ الفلسطيني رخيص على ما يبدو حدَّ اشتطاطِ القيمِ عن معانيها.. ومراوغة العطش المرِّ في بسملة التأبين .

للرصاصَ المسكوكَ من معدن القهر.. دمُ الفلسطينيّ، السائلُ الرجراجُ، القاني بعنبرِ الحقيقة، يرتِّقُ أعراقَ الغيب في نبوءة الاعتراف برغبة السلام دافعاً «الثمنَ» كلَّ دقيقة.. ساعة.. يوم.. طوال العمر.. هل هذا شأن الساسة «الميكافيليينَ» في اجتراح النصر بالدم ؟!

وما هو الدم؟!
رصاصٌ طائشٌ في الوقت؟!
حمّى القهرِ في النزيف؟!
ضراعةُ الوجعِ في ارتهانِ الأحمر القاني إلى ذلِّ الحياةِ ومجد القيامة؟!
ما هو الدم؟!
عبارةُ الجرح في مساحة القبر؟!
شارةُ الأصيل المنتحر على سبائك فضة الوقت؟!
جدارةُ الموت في لمعانَ النياشين؟!
انسراحُ الغيمِ الأحمر في سوادِ العيون؟!

بكاءُ الأمِّ تحتَ نشيجِ طفلٍ ممددٍ على سرير قيامة الأشياء من موتها.. أَمْ موتُ الاشياءِ في قيامتها؟!
ما هو الدم؟!
ركاكةُ التعبير في استقبال الرصاص.. أم روحُ جندي فلتت من عقال أبجديات الأنسنة؟! وتوحدت بالحديد الذي لا يساومُ قطنَ المعرفة، وصوف الأحزان؟!
وهل نملَك نحن الفلسطينيينَ سوى دَمِنا.. وموتِنا.. فمتى يفهمُنا العالم على حقيقتنا؟!
مستوطَناتٌ بحجمِ الريح
أبَّنًا شعائرنا.. ولمَ نسترحْ بعدُ من عناء التأبين؟!
وهم يريدونَ دمَنا ثمناً لوطننا الذي سلبَوه، يريدونه ثمناً لمأساتهمْ.. وكنَّا قد دفعنا الثمنَ بكامل عدَّتهِ وعتاده، وعنادِه، نصف فلسَطين بالتمام، وبالكمال، بل وأكثر قليلاً .

-V-

هل استفاق العرب؟
الحمد لله .. لسنا وحدنا
إننا في الهزيع الأخير من الليل والقتل.. والخيانة.
يقول شاعرنا محمود درويش في إحدَى قصائده القديمة: «أشهد أنني ودعته بالصمت قرب البحر»
وأقول: «أشهد أنني ودعته في الفجر قرب الأرض/ كان نداؤه طيفاً/ وكان صدى الكلمات من فمه/ يغيب في ضجيج التظاهرات، وسط لون الحرائق والدخان الأسود الكثّ، والرمي الكثيف.. السريع من بندقية جهنمية ترشُّ الأرض بالأجساد، و«تنعف» (وهذه الكلمة مستعارة من قاموس الصديق الشاعر المتوكل طه) الدمَ من الشرايين كي لا تصرخ أغيثوني..كانت يدُ الأب شارةَ النصر، مروحةً في الريحِ، وآيةَ سلام واستسلامٍ في آن.. وكان جسدُهُ برهانَ الانتصارِ والاستسلامِ» برهانَ القتلِ في الحياة، برهانَ الحياة فيً القتل .
وكان نشيجهُ السريُّ الذي لم يسمعه أحد، يصل النورَ بالليل، والمطرَ في الأرض .
لم يفقد الأملَ، حتى لكأن اليدَ الضريرةَ وهي تردُّ الطلقات/ أقصدُ تحاولُ أن تردَّ/ كانت قد نسيتْ أو انشغلت عن أن تعبثَ بشعر «الفتى» كانت تردُّ البردَ والحمّى.. وحرائقَ الوقت وغيلةَ الجوع.. ورصاصات النار.. وحمى الحديد للقتل، ولكنها لم تفلح؟!
إنها يدٌ عاريةٌ.. يد ممزقةٌ، يدٌ تحولَتْ إلَى دريئة.. يدٌ مأسورةٌ في الجسدِ، يدٌ لا تطيرُ، يدٌ كتبتْ فوقَها الأيامُ والطلقاتُ شقاءَ الوطن، وعفةَ الروحِ في المقاومة .
ألا تكفي اليدُ في الدفاع عن الطفولة ؟!
ألا تكفي الروح لإنقاذ الطفولة ؟!
ألا يكفي نشيجُ التلويحِ باستسلام الروحِ والجسدِ إلى انسانيتهما ؟!
لا يكفي أبداً ؟!!

حتى ذلك الوقت لم أنتبه أن دمي رخيص إلى هذا الحد، ولم أعرف أن أبوّتي لا تشفع لي أبداً أو لا تقوى على حماية ولدي

هل حقاً يُستَلَبُ الدمُ لصالحِ دمٍ آخرَ؟!

والأرضُ تستلبُ لشعبٍ آخرَ

والروح تُستلب لروحٍ آخر

والحلم يستلبُ لحلم آخر ؟!

أهي كومونةُ القتل؟! وهل نحن ضد الزمن والحياة لنعيش كومونة القتل والدم هذه؟! ولا نعيش كومونة الفرح والحياة وتوزيع الثروات؟! كأننا نبني الوطن اليهودي بجثث ضحايانا في الوقت نفسه الذي نبني فيه الوطن الفلسطيني بقرابين مئاتِ الشهداء،؛ وعلى أرضنا .

لكم القوة،

ولنا البسيط من الاحتمال،

لنا الكمالُ في الشهادة،

لنا الكمالُ في الحياة،

لنا الأرض.. لنا مواقيتُ النزف.. لنا زحفُ الدمِ المقدَّسِ على الأرصفة. لنا ترابُ الأرضِ قبوراً. لنا الضحايا / الشهداءُ

ألا يخيفكم هذا ؟!

لنا الحولُ.. ولا قوةٌ

تقاسموننا الأرضَ / وتنهبونَ حيواتنا. تقتلونَ أمومةَ أمهاتِنا وأبوّة آبائِنا وأبنائنا، وتسرقون فتوّةَ شبابِنا.. ولا تندمونْ؟!!

نحنُ البسطاءَ الفلسطينيين

ليس لنا سوى دمنا المعتَّقِ كالصلاةْ

-VI-

«محمد» لا يحب سوى الكلام القليل والمدرسة.. ودروس القراءة، وبالتحديد درس «إنكم عابرون» ككل الغزاة، على هذه الأرض، والأرض ثابتة لم تتغير ولم تتبدل، ولم تنحرف عن خطوط الطول والعرض. ولنا حريَّةُ الاختيار والخيار بين فصل جغرافي وامتثال جغرافي لأننا لا نؤمن، أبداً، بالأمر الواقع، ولن نؤمنَ، لأن الأنبياء شرَّعوا مقولات التغيير بدءاً من «موسى» عليه السلام الذي عزَّزَ التغيير في ديانتكم ووصولاً إلى «محمد» صلى الله علَيه وسلم الذي أطَّرَ ديالكتيك التسامح بيننا وبينكم قبل ألفيْ سنة، فلا أنتُم آمنتُمْ بـ«موسى» على نحو فلسطيني، ولا نحن كفرنا به على نحو يهودي، ونحن آمنّا بـ«محمد» وتسامحه، ولـ«محمد» الآن في عرشه الرطب كلُّ الوداعة واقتناصُ السماحةِ من دمِ الضحية فليختر إذاً، أبونا إبراهيم الخليل عليه السلامَ وَرثته كَما لم يختر أَبداً من قبل .

«محمد» يحلم بأقلام الرصاص والممحاة، فكيف يحلُّ وظيفةَ الحساب؟ هل حللتم أنتم وظيفة الحساب؟
إذاً: (ما هو الناتج بين جغرافيا القتل وجغرافيا الحلم) لتضعوا حداً لحياة ولد يتمتع بكل أسباب الإنسانية والعيش، ولدٌ بسيط اسمه «محمد» وليس له ذنب سوى أنه استطاعَ أن يحلَّ وظيفة الحساب.
أما معادلةُ الأرضِ فهذا شانٌ آخرُ، لكن جيل «محمد» عرف إشكالَ اللغز، واستطاع حلَّ الوظائف كلِّها.
تنهبون الأرض ومَا عليها.. وما تحتها.. وما فوقها فأي آلاء عدل التسامح، أو تسامح العدل يرتضي هذا؟
والندمُ لا يصلُ.. ولن يصلَ إلى طهارةِ الدمِ الفلسطيني الرخيص، أما درسُ العلوم فهذا شأن آخر!
دم.. دم.. دم
دمٌ قربَ الجدار
دمٌ قربَ الرصيف
دمٌ قربَ نبضِ الحياة
دمٌ قرب الخلاَص
دمٌ يتعمَّدُ في الريَح
دمٌ في المكان / دمٌ فَي الزمان
دمٌ في عروقَ يد الأب
دمٌ في شكل اَلكلامِ
دمٌ في أبجدَية الحَروف
دمٌ في أصابعِ اليد التي تضغط على الزنادِ
دمٌ في القتيلِ اَلأخيرِ
دمٌ في ابتسامَة القتيَل
دمٌ في المسافة اَلتي تبكي
دمٌ في عين المَصور
دمٌ في المكان الذي لن يصير يهودياً أبداً
دمٌ صاعقٌ فَي الرئة
دمٌ طائشٌ في العيوَن
دمٌ عارفٌ ذلَّ هذا المحاَل
دمٌ يترجَّلُ من صورتهِ، وينزلُ في شارعٍ أعزلٍ ويقاومُ حتى الشهادة
دمٌ في الولادة
دمٌ في الشهادة.

---

* شاعر وناقد فلسطيني يقيم في بيرزيت.

العَذابُ المُرقَّط ..
في ابتداعِ الوَهمِ المُقدَّس

محمد حلمي الريشة*

-I-

حَديثُ المَكان (قبر – مقام يوسف) (1)، شَدَّني برفق إلى طُفولة رَأت المكانَ بلَهوها، دونَ أَن يعنيها بشيء، سوى أَنهُ سَاحةُ لَعب بَريَّة، هيَ أقربُ لي إلى قَطعَة ريفيَّة، أنَا المحَتجزُ في بناء مَدينيٍّ مُقام على شَارعٍ خَطر على الطُّفولة، كَمَا كان يَرى كَبيراي، فكانَ المكَانُ – التُّرابُ فُرصتي والأَطفَال، كي نَنتقَّمَ من رَتابةِ النِّظَامِ والنَّظافةِ الأُموميَّة.

-II-

لَم يَكن لطفل مثلي، آنذاك، أَن يعتنيَ بقراءة المَكان، أَو السُّؤال عنهُ تاريخياً أَو أَثريَّاً. .. وأنَّى لي هذا، وقد انتظرتُ ذلكَ اليومَ الذي وعَدتني فيه أُمِّي، أَن أَكونَ ونسوةٌ أُخرياتٌ معها، اكتشفتُ أنَّهنَّ كنَّ يَذهبنَ إلى هناكَ لأَهداف أخرى، غير التَّرويحيَّةَ التي فَهمتُها من تَلكَ الرّحلات.

فَالنِّسوةُ كُنَّ يَذهبنَ في مُناسبات مثل (عاشوراء) أو (موسم النبي يوسف)، للصَّلاة والتَّبرُّك والوَفاء بالنُّذور، والدُّعاء إلى الله لمَن لَمْ تُنجبْ بَعد، وختَانِ الأَطفال وقَصِّ شُعورهم الطَّويلَة دليلاً علَى ابتداءَ ذُكورَتهَم، ومن ثَمَّ تَوزيع أَطعمة النُّذور، أَو الحَلوىَ التي كنَّا نَتسَابقُ لنَيل حصَّتنا منها، والفرار بهَا عَائدينَ إلى لَهونا غَير المُمكن لَنا فَي غَير هَذا المكان، ومُسَابقينَ سَاعات النَّهار، قَبلَ أَن يَتمكَّن المغيبُ منَها ومنَّا، المغيبُ الذي كانَ يُشكِّلُ مَبعثَ انقبَاضٍ في نَفسي، ولا يَزال، وهذه حَالةٌ كنتُ أُحاولُ عِلاجَها بنَومِ

تلكَ الفَترة المَرَضيَّة، أَو افتعالهِ كي أَنجوَ منها، والدُّخول إلى منطقةِ العَتمةِ التي شَكَّلَتني كائناً لَيلياً ...
لَعلَّهُ الشِّعَر،
أَو عِلَّته !.

-III-

غابَ اهتمامي بالمَكان، بل وخَرجَ من ذاكرتي، بعدَ أَن عَبَرْتُ الطُّفولةَ، وحيثُ لَم تَعُدْ أُمي والنِّسوةُ يَذهبنَ إليه، بَعد الاحتلال الَصُّهيونيِّ للضِّفة الفلسطينيَّة وقطاع غزَّة في حزيران / يونيو العام 1967، وما صَاحبَ هذا الاحتلاَلَ البَغيضَ منَ احتلاَلات دَاخليَّة أُخرى لأَمكنة مُقدَّسة إسلامياً؛ مثل الحرم الإبراهيمي في الخليل، مسجد بلال بن رباح في بيت لَحم (قبرُ راحيل كما أَطلق عليه اليهود)، وقبر – مقام يُوسف في نابلس الذي بَدأَ المُحتلُّ احتلالَهُ تَدريجياً بأَساليبَ خَبيثة في العَام 1977، إلى أَن أَقدمَتْ قوَّاتُ الاحتلال، في الحادي عَشر من شَهر تشرين الثَّاني / نوفمبر 1982، على وَضعِ يَدها الحديديَّة عَليه، وتَحويلهِ إلى ثكنة عَسكريَّة بحُجَّة أَنه أَصبحَ مَدرسةً يَهوديةً ودينيَّة، وأَن المكانَ يَضمُّ قبرَ النَّبي يُوسُف الصِّديق عَليه السَّلام ومقامَهُ، فَمُنعَ سُكّانُ مَدينة (نابلس)، وغيرهم المُسلمونَ من إقامةِ شَعائرهم فيه، خاصَّةً ذلكَ الاَحتفال السَّنوي الذي يُسمَّى (مَوسَم النَّبي يُوسُف).

-IV-

لَم يَطُلْ غيابُ اهتمَامي بهَذا المكَان (القَبر – المقَام) ..
شَكَّلتْ السَّيطرةُ الصُّهيونيَّة عليهِ، وتَحتَ غطَائها الدِّيني المُفتعل بوَهم مُقدَّس، سَبباً مُباشَراً للاحتكاك اليوميِّ بين القَائمينَ الجُدُد، وبين السُّكان المَحلِّيين حَوله وطلبة المَدارسِ المُجَاورة. فالزَّعمُ الإسرائيليُّ: «كان يرتكز على فرضيات توراتية وينبع من مجرد فكرة تشابه أَسماء هذه الأماكن مع الأسماء التوراتية. من نتيجة ذلك، قيام إسرائيل بمحاصرة هذه الأماكن الواقعة في قلب المناطق السكنية الفلسطينية بالثكنات والمنشآت العسكرية (...) هذه المزارات تحولت إلى قلاع وحصون، يستخدمها الاحتلال الإسرائيلي كمواقع أمامية للسيطرة على المناطق الفلسطينية، وإدارة معاركه لقتل الفلسطينيين».(2)

بالنِّسبة الى (قبر – مقام يوسف)، فَضحَ «المشهدُ المراوغُ عبثَ الأَيدي القَذرة التي تَدبُّ الرُّعبَ في المكان وفينا: طَفلةٌ يَقرصُها كلامُ الجنديِّ (يهودي / درزي / بدوي) أَثناءَ مُرورها مَن مَنـزلها المُبعثَر في المخيَّمَ أَو القَرية القَريبة للمَدرسَة .. طفلٌ انْتُهكتْ ساحةُ لَعبه، إذ صَارت سَاحَةً للأَقدام الثَّقيلة التيَ تَدبُّ علىَ الأَرض مَثلَ أَقدامَ ثَور هَائج .. أَصواتُ صَلاة مُنفِّرة، لاَ صَلاة فيها، يَعتقدُ نَافخُوها أَنَّها سَتَصلُ إلى السَّماء بشكل أسرعَ كلَّمَا كانَ الصَّوتُ – الضَّجيجُ عالياً، صوتٌ كأنهُ خوارُ البقرة التي طلبَ الله عزَّ وجلَّ منَ بَني إسرائيلَ أَن يَذبَحُوها، وذبَحُوها بعدَ أَن طَالتِ (المفاوضات) آنذاكَ كثيراً..». (3)

هذه صورةٌ جزئيةٌ ومُنتزعةٌ من المَشهد الاستفزازيِّ والكبير في آن، لمَا كان يُرسَلُ من هذا المقامِ – القبر، من إشاراتٍ دَمويَّةٍ صَبغتْ أجسادَ الكثيرِ من الفلسطينيين المُقيمينَ حَولهُ أو العَابرينَ قُربَه.

من هنا، كانت فُرصةُ المقاومة والاندفاع تتَّجهُ فلسطينياً نَحوهُ في أكثر من مَجزرة، تَربَّعتْ بنَوايا المحتلِّ القاتل وجَدارته، على أياديه بكلِّ هُدوءِ أعصابٍ وغيابِ ضَمير وَازع. وأنَّى لهُ هذا، وهو المجبَولُ بِصفاتِ الحقدِ والعُنصريَّة والنَّظرةِ الأُحاديَّة الجَانب ؟.
إنَّه العَذابُ المُرقَّطُ دَاخلَ وَهَمٍ مُقدَّسٍ ابتَدعُوه !..

–V–

وهْمُ العَذابُ المُرقَّطُ دَاخلَ وَهمٍ مُقدَّسٍ باستباحَة شَاذَّة !.
مَرَّةً، كنتُ عَابراً، شَارعاً مُوازيَاً للقبرِ – المقَام، يَنْفتحُ منهُ شَارعٌ صَغيرٌ كَيَد تُشيرُ إليه ..
حَدَّثتني نفسي الأمَّارةُ بكُرهي لَهم، أن أُلقيَ نظرةً شَزرَةً علَى المَكان، رغمَ استباقِ الامتعَاضِ في الصَّدر قبلَ التَّمكُّنِ مِنها، بل وبِمُجرَّدِ وَسوسَةِ النَّفسِ بِهم.

اقتربتُ بضعَ خُطوات ثَقيلة، كأنَّها لا مُبالية، عَلى رَصيف مَفقُود، ومُتحسِّساً مَواقعَ قَدميَّ وجِداراً، خَشيةَ ردِّ فعْلِ قَنَّاصٍ لن يُتقِنَ قراءةَ هَدفي المُستعَادِ من الطُّفولَة، وقد وُلِدَ لِتوِّه ..
ولكن :
لا المكانُ هوَ المَكان ؛
لا التُّرابُ الذي اشتَهيناهُ حَلوىً (شوكولاتة) بعدَ مَطرٍ مُتوسِّط /
لا الأعشَابُ سجَّادةٌ ضدَّ عَثراتنا الكثيرة وحزينةٌ جَاراتُها من الأعشَاب /
لا الطُّيورُ الكانت مَذعورةً من مُحَاولاتنا الفَاشلَة لصَيدها تَقتربُ من تدنيسِ مُرتقَاها /
لا الشَّجرُ مَأوىً لَها أو لتَسلُّقنا فراراً من تَوبيخٍ صَامت /
لا السَّهلُ فُسحةُ الخَيل /
لا الخيلُ حكَّةُ السَّهلِ /
لا شَيء /
لا شَيءَ، سوى أن المُحتلَّ كلُّ شيءٍ هُنا؛
ابتداءً من رَأسِ بُرجِ اتِّصالاتهِ كشَجرةٍ عَانسٍ لا تُثيرُ لُقاحَ مُراهقٍ ..
إلى بَصْمات حَوافره ..
إلى رَائحةِ الضَّبعِ الذي في دَواخلِه !.

-VI-

تُعيدني، أَنا الفلسطينيُّ المُحاصَرُ من الوَريد إلى الوَريد، مَا خَلَّفتهُ أَحداثُ (نفق الأقصى– 1996) من دماء وجُروح ونُصُب شَاهدة عَلى بَشاعة سُلوكهم غَير البَشريِّ ضدَّ بَشرٍ فلسطينيين، لِتَذكُّرِ مَشهدِ المُقاوَمةِ الذي تَحوَّلَ فَيهِ القاتِلُ المُحترِفُ إِلَى «ضحيَّةٍ» قلقةٍ على مَصيرها.

كانَ هذا خلالَ مُحاصرة جَمع من الفلسطينيين لمقام – قبر يوسف في اليَوم التَّالي ليوم الأَحداث: نُسورٌ غَاضبةٌ تُحاصرُ أَرانبَ مَذعورة .. هكذا يُمكن التَّعبيرُ بِبضعِ كلماتٍ، عن ذَلكَ المَشهدِ الذي بثَّتهُ التَّلفزةُ ورَواةُ المُراقبونَ.

هكذا يُمكن أَن تَراهُم آنذاكَ؛ لهم وجوهٌ كالحةٌ مُسْودةٌ، وأَجسادٌ تَنكمشُ على نفسِها، وفمٌ يكاد يُخفي أسناناً مُصطكةً، وشفاهٌ بِمَذلَّةٍ تَصرخُ رَاجفةً: «كَفَى .. كَفَى .. سَلام .. سَلام».
الآنَ السَّلامُ إذاً !.
نَعم .. هكذا يَجبُ أَن يَكونَ ..

وَهكذا تَمَّ إِخراجُهم من المَكان للمرَّة الأُولى بَعد تَوسُّلات وتَدخُّلات سياسيَّة وعَسكريَّةٍ ..
ثمَّ أَليستْ هذهِ حِكمةَ الصِّراعِ الطَّويلِ وغيرِ المُتكافئ فيَ لُعبتهم الوَحشيَّةِ ضِدَّنا ؟.

«لا مَوعدٌ لأَزورَ بَسطَكَ يا مُقام على الصَّدى ..
لي ما لَديكَ من البَياضِ ؛ مَنصَّةٌ
للحُكم : مُتَّهمٌ ، فَخُذْ
رَأسَ انْحدارِكَ في يَديكَ ، مُسَافرٌ
الآنَ أنتَ إلىَ «الصَّوابِ» . وما الصَّوابُ – رفيقَ رأسي – ههنا
إلا اعتناقُ البَارحَة ».

-VII-

يَعودُ المكانَ، أو نُعيدهُ إلى صَدارة غَضَبنا المَشرُوع والمُشرَّع عَلى سُؤاله ثَانيةً وثَالثةً وربَّما عَاشرةً أَيضاً.. ذلكَ لأنَّهم عَادُوا إليه، بأَصلب مَن قَبلُ قوةً واتّكاءً عَلَى مَرَضهم الخَوفيِّ العُضَال، بِضَمانات (أُوسلويَّةٍ) تُبيحُها لَهُم اتّفاقَاتُها لِطَرفِهم دُونَنا، كَمَا رَأينا ونَرى عَلى أَرضِ الوَاقعِ – وَاقعِ الأَرض !.

مرَّةً أُخرى، يَشتعلُ المكانُ ومَا حَولهُ بَعدَ اندلاعِ انتفاضَةِ الأَقصى في الثَّامنِ والعشرينَ من شَهرِ أيلول /

سبتمبر العام 2000 .. وكانَ أن تَمَّ غَسْلُ المكان وتَطهيرُهُ بدماء العَشرات من الشُّهداء والجَرحى، بَعدَ قَصفِهم بِعَقليَّةِ الإبادةِ والأطرافِ الوحشيَّةِ التيَ تَعتلي الطائراتَ وقمَّتي عَيبال وجرزَيم.

... ومع انبلاجِ فَجرِ السَّابع من شَهر تشرين الأول / أكتوبر العام 2000، حَملَ المُحتلُّ حَقائبَ حقده الثَّقيل خارجَ المَكانِ .. ورغمَ أنه لَم يُسافرْ بَعيداً عنه، فإنَّه لَمْ يَستطعْ أن يَأخُذَ معهُ، أو أن يَمسحَ، عنَ ذاكرةِ الطُّفولةِ فيَّ، غُباراً كنتُ أَثرتهُ بِقدميَّ وأَنا أُطاردُ فَراشةَ اللَّهوِ آمناً مُطمئناً.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في نابلس.

إشارات :

(1) يقع قبر – مقام يوسف وسط قرية بلاطة، الواقعة عند المدخل الشرقي لمدينة نابلس. ويشير التكوين الأثري إلى أن البناء كان في العهد العثماني، ويعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي. ويرى المؤرخ النابلسي إحسان النمر، صاحب كتاب «تاريخ نابلس والبلقان»، أن القبر القائم في المقام يعود لشيخ اسمه يوسف، عاش ومات في العهد التركي. أما ابن شداد صاحب كتاب «المحاسن اليوسفية» وهو كتاب يتحدث عن سيرة يوسف صلاح الدين الأيوبي، فيعتقد أن القبر والمقام هو ليوسف صلاح الدين الأيوبي والمشتهر بصلاح الدين الأيوبي خلال الحملات الصليبية. وكان البروفيسور الإسرائيلي فينكلشتاين / رئيس قسم الآثار في جامعة تل أبيب، قد قال خلال برنامج بثته القناة الإسرائيلية الثانية في العام 1996 إن قبر راحيل في بيت لحم وقبر يوسف في نابلس والحرم الإبراهيمي في الخليل، ليست أماكن مقدسة لليهود، وقبر يوسف هو مقام لشيخ مسلم.

(2) د. باسم رعد: «مفارقات بشأن قبر راحيل وقبور أخرى» (دراسة). مجلة «الشعراء» – بيت الشعر . رام الله / فلسطين، العدد 11– شتاء 2001.

(3) محمد حلمي الريشة: «زفرات الهوامش». منشورات دار الزاهرة – بيت الشعر . رام الله / فلسطين 2000. (ص: 102–103)

موت الموت

زهير أبو شايب*

أشعر بالخجل من دم أهلي الذي أراه من بعيد. هم يذهبون إلى المعنى ويتركون دمهم في المكان، وأنا أذهب إلى دمهم لأختبئ فيه وأبحث عن معناه ومعناي.

كيف نصل إلى الكتابة حين نتبع الدم؟ لكن، هل من الممكن أن يمر الدم دون أن نقف فيه ونستشيره ونتعلم منه الكلام؟

في اللغة العربية، يجمع الفعل «كلم» بين معنى الجرح ومعنى النطق، وكأن الدم والكلام ينتميان إلى حقل دلاليّ واحد. هكذا تغدو رصاصة العدو سبباً للدم والكلام؛ أعني سبباً للمعنى لا سبباً للموت.

لقد اكتشف الفلسطينيون تلك الثنائية في انتفاضتهم الأولى، فرشموا الجدران كلها بالكلام، مثلما رشموا الأرض بدمهم. كانوا كأنهم يعانون من أزمة تعبير لم تخرجهم منها سوى الانتفاضة التي استمرت كل تلك السنوات، ثم عادت لتنفجر من جديد بكامل حرارتها وألقها ودهشتها، لأنها لم تكن مجرد دم فقط، بل كانت كتابة.

كنت أظن، حتى وقت قريب، أن الانتفاضة مضت دون أن تؤسس شيئاً، لكن من الواضح الآن أنّ الفلسطينيّ كان قد تحررت ساحات كبيرة من وجدانه خلال الانتفاضة الأولى، وأنه أصبح مؤهلاً للتعبير عن وجوده في الزمان والمكان خارج شرط الاحتلال.

* * *

في الحقيقة، لم تتوقف الانتفاضة الأولى بشكل كلي كما كان يبدو، لكنها ترهلت ولم تعد تثير الدهشة،

وحين اندلعت انتفاضة الأقصى، لم يكن أحد يعتقد أنها ستستمر، لقد أصبحت الانتفاضة تعبيراً إبداعياً اجتراحياً يخدع التوقعات ولا يخضع لشروط القراءة السهلة، لذا، لم يكن الشعراء المدعوون إلى «ملتقى فلسطين الشعري الأول» يتوقعون أنهم ذاهبون إلى لحظة الانتفاضة، رغم أنهم كانوا قلقين إلى حد ما، ومستثارين كأنهم ساقطون من حلم، كان كل منهم يتفقد فلسطينه في الجانب الأيسر من صدره، ويرتّب انفعالاته وأشواقه وذكرياته ليعبر نهر الأردن باتجاه ذلك المكان وخفته التي لا تحتمل.

حين عبرنا الجسر، رحت أراقب وفاء العمراني وصلاح بوسريف، اللذين كانا يبحثان عن فلسطين في المكان الذي تقف فيه «إسرائيل» تماماً، ولمحت ما يشبه الخيبة على وجهيهما، تلك الخيبة نفسها، كنت قد لمحتها، قبل أن نغادر الفندق صباحاً إلى فلسطين، على وجه صبحي حديدي وقاسم حدّاد، اللذين لم يوافق الاحتلال على دخولهما الأرض الفلسطينية. كان قاسم حداد على وشك البكاء لأنّه لن يكون معنا في فلسطين.

تساءلت، بيني وبين نفسي: «ترى، هل وجد كلّ من وفاء العمراني وصلاح بوسريف فلسطين التي يبحثان عنها هنا؟».

لم يكن ثمّة كلام كثير، كنت أخشى أن يأخذنا الكلام إلى الخيبة التي لن توصلنا إلى فلسطين. وكان من الواضح أننا متواطئون على هذا المكان العاديّ.

قلت لوفاء: «ليس مع المشاهدة فهم»، وصمت من جديد.

حين دخلنا أريحا، كان أحد الشهداء في استقبالنا، عندئذ، تبدّلت ملامح رفيقيّ، هي ذي فلسطين التي لن يراها المرء إلاّ خلَّباً. بشرٌ نصفهم أرض ونصفهم سماء، يتحركون كأنّهم يلدون المكان، ويوزعون ظلّهم على أشيائه، وعند الطرف الآخر من المدينة، كان المئات من شباب أريحا يتوافدون ليواجهوا الدبابات التي تقف كالضباع على جانب الطريق.

قالت لي وفاء إنّها تشعر بالطمأنينة رغم خطورة الوضع، ووافقها صلاح على ذلك مثلما وافقتها أنا. كانت النشوة هي التي جعلتنا نشعر بذلك.. تلك النشوة نفسها التي تجعل الفلسطيني يذهب إلى المواجهات دون أن يفكر بخطورتها، ذلك لأنّه ذاهب إلى المعنى، لا إلى عبثية الموت.

حين يتحوّل الوطن إلى واجب، يصبح مملاً وثقيلاً، هكذا يضيع، لأنّ أصحابه يتخلّون عنه ليرتاحوا، لكن، حين يكون الوطن استغراقاً معنوياً، فإن (الموت في سبيله) يغدو لذة حقيقية. هذا هو الفرق بين الفلسطيني وعدوه؛ هو يذهب إلى «لذته»، في حين يذهب عدوه إلى «وظيفته» الثقيلة، وعندما يلتقيان في نقطة تقاطعهما، لا يجدان سوى أرض واحدة لا تقبل القسمة على اسمين متناقضين، ولا تمنح وطناً إلاّ لمن يمنحها المعنى بكامل شبقه وصوفيته وقياميته.

في نقاط التقاطع، كانت فلسطين تسطع، لا بصفتها معنى جوانياً فقط، بل بصفتها فعلاً مضارعاً في الزمان والمكان.

حين وصلنا إلى رام الله، لم يكن رفيقاي قد تعرّفا بعد إلى المكان، لكنهما كانا قد أدركا سرّه منذ التقيا، في أريحا، بأوّل شهيد، ذلك لأنّ المكان نفسه قد حوّل وجودهما فيه من حضور تفرجي إلى غياب رؤيوي.

هناك، بدأت أستوعب مشهد اغتيال الطفل «محمد الدرة»، وظل صراخ أبيه: «مات الولد، مات الولد» يتردد في أعماق روحي ويزلزلها، وحين ذهبنا، في اليوم التالي، لزيارة الجرحى في مستشفى رام الله، ولتعزية ذوي الشهداء في البيرة والأمعري وبيتونيا، كانت صدمة «الدرة» تتشكل بالتدريج وتفقدني تماسكي.

كان معظم الجرحى والشهداء، حتى ذلك، من الأطفال، لذا، كان استشهاد محمد الدرة يمثل الانتفاضة في أحد أبرز ملامحها. لقد كان الأطفال هم الذين منحوا هذه الانتفاضة شخصيتها، مع أنّ الكبار لم يكونوا غائبين عنها، إنها انتفاضة الفَراش الذي يتوحّد مع الضوء ويمنحه قداسته، ويجعله سبباً كافياً لمعانقة النار!

نعم، كانت انتفاضة أطفال، وانتفاضة طفولة. شعب كامل من الأطفال يلعب مع الموت ويروّضه ويقدّم، من خلاله، تعريفاً آخر للحياة، ولأن العدو خشي أن تردّه صرخات «مات الولد! مات الولد!» إلى إنسانيته، سارع إلى اتهام الفلسطينيين بأنهم يرسلون أطفالهم إلى الموت، ليجعلهم وحوشاً ويساويهم بنفسه. لكنّه لم يحاول أن يفهم السبب الحقيقي الذي يدفع الأطفال ومريديهم من الكبار إلى اللعب على ذلك الصراط الخطر الذي يفصل بين الموت والحياة.

هؤلاء الأطفال، هم وحدهم الذين يدركون البعد اللعبي للوطن؛ ذلك البعد الذي لا يستطيع الكبار أن يدركوه إلاّ حين يستردون طفولتهم وقدرتهم على الدهشة، أعني، حين يذهبون باتجاه الحياة، لا باتجاه الشيخوخة التي هي عتبة الموت.

أوّل الشهداء الذين زرناهم في رام الله، كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره. كانت صوره معلقة على شبكة من الحبال المتراكبة تشكل سماءً صغيرة فوق رؤوسنا، وكان هو –ببزته العسكرية– ينظر إلينا من وراء سمائه وكأنه يتهمنا بالشيخوخة. سألني سيف الرحبي وهاشم شفيق: ماذا تقولون عادة في العزاء؟ فقلت لهم: لا أعرف، ربما نقول: عظّم الله أجركم.

لكن والد الشهيد نبّهنا إلى أنّ هذا الموت غير الموت الذي نعرفه، ولذا، فإنّه لا يصحّ أن نستخدم فيه العبارة نفسها، قال لنا: باركوا لي، فأنا أب لشهيد، والشهيد لا يموت.

لكنه كان يخفي، في داخله، تلك الصرخات التي تجرح السماء: مات الولد!! مات الولد!! وكنت أسمعها في داخلي وأتخيل نفسي مكانه.

لم أستطع أن أتماسك وأنا أقف وجهاً لوجه أمام هذه الطفولة التي تتصرف بصفتها إصحاحاً للحياة، وعوداً أبدياً إلى ينابيعها الأولى. كان ينبغي لي أن أتصرف كما يتصرف الطفل عند ولادته، لا لأن البكاء يوفر الشفافية اللازمة للطفولة، بل لأنه يعلم المرء كيف يتنفس.

لم أكن أتقن البكاء علناً قبل ذلك، كنت أعتبر البكاء العلنيّ كذباً لا يصحّ أن نقع فيه، لكنّني لم أستطع أن ألتزم بتلك «الفضيلة» الكاذبة هي الأخرى، لأنني كنت أبحث عن رئات أخرى، بحجم ما أحتاج من هواء.

حين عدنا إلى الفندق، كانت عيناي منتفختين وحلقي يابساً، رأتني الصديقة منيرة زريقي وأدركت أنني كنت أبكي، فراحت تحاول أن تواسيني كأنني أبٌ لشهيد. أخرجت من حقيبتها ورقة مطوية وقالت لي: «تعرف ابني سامر!! لقد أصبح عمره الآن أربعة عشر عاماً، ولم أعد قادرة على منعه من الذهاب إلى المواجهات، ولكثرة ما تشاجرت معه، خفت على علاقتنا أن تنشرخ، لكنه توصل إلى حلّ وسط بينه وبيني، واقترح عليّ أن نقتسم الأيام، يوماً له ويوماً لي، وأن يحترم كل منا يوم الآخر، وفي أحد «أيامي»، جاءني وقال: أعلم أن هذا اليوم لكِ يا أمي، لكنني أطلب منك أن تقرضيني إيّاه، لأنّه يوم استشهاد أبي، ولا يصحّ فيه أن أتخلّف عن المواجَهات».

ثم قدّمت لي الورقة التي في يدها وقالت: «هذه ورقة كتبها لي قبل أن يذهب إلى المواجهات».

عندئذ صرخت: هل استشهد؟ فطمأنتني أنه ما زال حيّاً والحمد لله، ثمّ فتحت الورقة وقرأت:

«أمي الغالية، اعذريني لأنني ذهبت إلى المواجهات دون إذن منك

رضاكِ يا أمي

أشهدُ أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله

ابنك سامر».

عدت ثانية إلى البكاء، لأنني أحسست هذه المرة بضآلتي أمام هؤلاء الأطفال الذين استطاعوا أن يفصلوا الزمن، كما فعل النعمان بن المنذر، وأن يخيطوه على قدر شفافيتهم.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في عَمّان.

هل عادَ الجميع إلى البيت؟

وليد الشيخ*

(إلى الذين لن يعودوا إلى البيت)

-I-

أعلنت جدتي أكثر من مرة، أنها لم تر البحر ولا مرة.
وسألتها: ولا بحر أريحا يا جدة؟
– ولا أي بحر بالمرة.
كنت أستعد لاصطحابها لأول مرة إلى البحر؛ البحر المتوفر؛ الميت.
عندما هجمت الطائرات على بيت جالا.

-II-

أنا أحبُّ «فيفالدي» حتى في زمن الانتفاضة، قلتُ للمرأة التي سألتني عن دور الكاتب وقتَ الحرب.
وقلتُ أني لستُ رهينَ الدم. ولا أجدُ القدرة على صياغة ذبح محمد الدرّة وفارس عودة، لغةً.
وأنا أسيرُ في الجنازات مأخوذاً بسطوة الهتاف الذي يشغَلُ سماءَ بيت لحم، حيثُ من عليائها يتفقدُ السيدُ الشهيدُ القديم، مدينته، ملفوفاً بحزنها البعيد، حينَ «هيرودوس» أمعَنَ في قتل صغارها، لينجو من اقتراحِ أحدهم؛ تخليص الإنسان من المعاناة. اقتراحٌ جليلٌ صاغهُ أحدُ مواليد بيت لحم قبلَ ألفي سنة.

-III-

وتخيلتني فوق أكتافهم.

أصوغ لهم الهتاف الأشد فتنةً، وهم يرددون، ورأيت نساء كثيرات تتقطر المرارة في حلوقهن، ورجالاً أشدّاء بحناجر مجلية، تعدني ألا تنسى ولا تغفر. ولفتَ اهتمامي طفل يحمل صورتي مكتوباً عليها:

تمهل، ففي كل شبر خطوات عليه فؤاد شهيد ثوى
وهذه الأزهار ذات الأريج عيون المناضل تحت الثرى
واشتد موتي عليّ.
وشغلتني موجة من الحنين لأمي، حنيناً لم أعهده من قبل.
ورأيت أني سأرفض موتي. بيد أني خجلت من ذلك.
فما عساي أقول لهذه الأكتاف التي تحملني، وللطفل الذي يحمل صورتي، وللنساء اللواتي ينحن.

-IV-

الحياةُ هي أن تفلت من الموت العادي في هذه المرحلة، إلاّ أنّ الجارة المريضة لم يعنها الأمر كثيراً، فماتت.
ولأوّل مرة منذ الحرب، نمنحُ فرصة اختيار؛ إلى أيّ الجنازات سنذهب، اقترحنا في البيت أن نتناصف الجنازات، على أن تكون الغالبية (النصف+1) لصالح جنازة الجارة، وتوزعنا.
ورأى والدي أنه يملك أقل الخيارات فانضم إلى جنازة أم ناصر؛ جارتي التي لم أنتبه لرحيلها، لانشغالي باقتفاء جنازات أخرى.
اليوم، أتذكرها، أعرفها طيبة، وستغفر خذلاننا لنعشها في مشوارها الأخير. سامحينا يا أم ناصر.

-V-

ضجّ ناس كثيرون. تعالَ أيها المخلص. «طاليطا» ماتت. وكانت القذائف تتساقط حول «طاليطا» التي استيقظت من نومها قبل ألفي سنة. فكيف اليوم تموت. المدافع تَدُكُّ بيت جالا. الانفجاراتُ تتوالى. والملائكةُ تصعدُ للرب بالصلوات أن يحفظَ الأيقونات ورائحة البخور والترانيم في كنيسة «مار نيقولا»، المجدُ لكَ في الأعالي وليهبط على بيت جالا السلام.

-VI-

وشغلتُ بالأسئلة.
أيحقُّ لنا اشتهاءَ النساء وقراءةَ كتب تعالجُ ما بعد الحداثة؟ وهل من اللائق أن أقرأ عبرَ الهاتف لامرأة ما «سوناتا ضوء القمر» ليانيس ريتسوس؟ وكيف أوقف حلَماً بعناق طويل ولذيذ؟
وينتابني خجلٌ من احتياجاتي اليومية، فيما الناس يذهبونَ إلى الموت، وأقنعُ نفسي أن ليسَ ثمةَ عيب كبير في أكل الكنافة أحياناً، وتبادل النكات وحتى القهقهة مع الأصدقاء.
كم مرّة بكيت منذ 2000/9/29، وكم مرّة ضحكت. كم مرّة شعرت بالقهر وكم مرّة بالفخر. كم مرّة كنت

ذاتياً، وكم مرّة كنت شعبياً.
وقبل أن أصل، مصالحة واتزان في عدد المرات، يكون الدكتور الألماني «هاري فيشر» قد تناثر جسده وعلّق على جدران حي الزيتونة في بيت جالا. يصر صديقي علي، بأن أرى نثار اللحم العالق على الجدار، قلت: إني رأيته من بعيد. يسحبني من يدي ويشير إلى قطع اللحم.
أتسمر لوهلة، وأخفي الرعب الذي اعتراني، وأواصل تسجيل شهادات مشفوعة بالقسم لجمعية حقوق الإنسان التي أعمل فيها.
أحاول أن أبدو مهنياً، قاسياً حين أتحدث مع الضحايا وأشدّ أزرهم بكلمات ثقيلة وحادة.

-VII-

هل عاد الجميع إلى البيت؟
في بيوت كثيرة لا يعود الجميع إلى البيت. حقائب دراسية ستنتظر. أسرّة صغيرة بحجم الحلم الفتيّ ستبقى فارغة. وبنات سيقفن إلى الأبد على النوافذ ليطلّ ابن الجيران أخيراً، ولن يطلّ.
وسيبقى السؤال عالقاً في فم الوالد كل مساء، قبل أن يغلق الأبواب:
– هل عاد الجميع إلى البيت؟

---

* شاعر فلسطيني يقيم في بيت لحم.

تسلّل الكتابة إلى ثالوث المكان

علاء الدين كاتبة*

... كلّ شيءٍ يحترق ؛

الألم،

النوم

وسرير الكلمات !.

-I-

تهرب منّي الكلمات. تلجأ إلى كهفها، وتطلّ خجولة على المشهد، تحكي لذاتها كيف لها أن تتطهر، وأن تعيد تشكّلها من أجل اللحظة ! .. كيف لها أن تقول، والصورة أبلغ من الكلام، وحرقة الألم أقسى قولاً منهما جميعاً ؟ .. وليس لها مطلقاً أن تنام هانئة في رحمها، فهي تمور في صدر صاحبها، تحجب عنه القول، قبل أن يأتيه ... ربما هذا اليقين !.

أقبع هنا في بيتي الواقع في (حي إسكان النمساوي)، أطلق عليه أهل الحي اسم جارنا «الشهيد محمد أبو العلا»، أحد الشهداء الأربعة الذين سقطوا معاً في إحدى معارك حاجز التفاح بخانيونس، أجاهد منذ بدء الانتفاضة الثانية على محاولة الكتابة، لكن كل محاولاتي ما زالت في نظري بائسة، لقد خانتني اللغة، وتمنّعت عنّي الكتابة، ولم يبق لي منها سوى التأتأة وتقطع الأفكار. كما امتنعت، أيضاً، عنّي عاداتي البسيطة؛ التأمل، القراءة، سماع الموسيقى، نرجيلة المقهى، ولقاء الأصدقاء في غزة، حتى الذهاب إلى العمل، والصبر على نميمة الموظفين، لم يعودا ميسورين لي كما كانا من قبل، بسبب الحصار المتكرر على خانيونس؛ حالة الحصار باتت تطال كل شيء .. حتى الفراش الزوجي .

حقاً، كيف يمكن أن تكون الكتابة، وأنت تقبع في غرفة لا تبعد عن مرمى مستوطنة الغرباء أكثر من

ثلاثمائة متر؟ ويندر أن يمرّ نهارٌ أو ليل ولا يحرمونا من حفلات الرعب، وقد أخذ حي الشهيد أبو العلا نصيبه جيداً من هذه الحفلات المشحونة بالرصاص والقنابل الرجّاجة، ومن قذائف الدبابات وغاز الأعصاب، حتى بات من النادر وغير العادي أن نقضي يوماً دون أن ننال جرعةً من التوجس والخوف، باتت الطمأنينة والهدوء والراحة مفردات غريبة على قاموسنا اليومي .

في العديد من الليالي، اضطررت وعائلتي الى الهرب من البيت، واللجوء إلى الأقارب والأصحاب بعيداً عن «حفلات موسيقاهم» المتواصلة، أكثر ما أخشاه حتى اللحظة هو أن يدبّ حريقٌ في البيت بسبب قذيفة ما، ويلتهم معه كتبي، وقد يزيلها عن بكرة أبيها، حتى تحامل بي الظن على أن أختار ما هو الأعزّ علي منها، لأسربه خارج بيت بات مهدداً بالانهيار. طال التردد، لكنني عقدت العزم أخيراً، وحشوت ما ظننته عزيزاً في جوف حقيبةً، وعزمت النية، أيضاً، على أن أحملها قريباً بعيداً عن تجربة الفقدان، إلا أنني لم أجرؤ لحظة على أن أحركها من مكانها خارج مملكتي الصغيرة، حتى طال بها الانتظار، تساءلت ما الذي كان يمنعني عن حملها طوال الوقت خارج البيت؟ حتى وجدت الإجابة، فكم من الحماقة حقاً أن يخير المرء بين أبنائه ! ..

إن مكانها جميعها هنا، أنجبها مؤلفوها لي كي تبقى معي هنا، حيث يجب عليها أن تكون. الأمرّ هو أنني أدركت عكس ما حملني الظن بها، فكيف لها أن تكون عزيزة علي وأنا ما زلت أحبسها في ظلمة حقيبة، لقد جنيت عليها بكل ما يحمله الآباء على أبنائهم أحياناً من خوف و جزع، حتى بتُ كالدب الذي قتلَ ابنه خوفاً عليه من ذبابة حامت فوق رأسه، وأدركتُ أن مكانها الطبيعي ليس بعيداً عني، بلَ على الرفوف والطاولة بين أناملي، أو على الأرض مفتوحة الأذرع جاهزة للقائي، يداعب أطرافها هواء الغرفة، تستنشق منه ما تشاء، وعلى هذا عقدت العزم الآن .

المعرفةُ التي في الكتب هي المعرفةُ ذاتها، لن تتبدل إن طالها الانتقال من مكان إلى آخر، لن يسوؤها هذا الأمر في زمن عادي، بل علّه سببٌ كاف للفرح، لامتدادها وعناقها لأكثر من يد قارئة، تأتلف معها وتشاركها هواجسها، لكن ما لا شك فيه أنّه سيضيرها في زمن كالحرب، لا يعود المكّان كالمكان ولا الزمان هو الزمان، أن تختل علاقةُ قرائها بها. أجل كان يمكن لكتبي ألا تهبني من لدنها شيئا لو أخرجتها من حيز فضائي إلى حيز آخر مقفر وموحش دون يد تؤانسها، كان يمكن لها أن تقتص مني بأكثر من ذلك، بحقِّ ما اقترفته من خطيئة، كيف لا، وقد كنت علّي وشك خيانتها !.

-II-

البيت .. « فدون البيت يصبح الإنسان كائناً مفتتاً». أعاد إلي دفء الكتابة شيئاً من حنين الكتب، وأخذني الحنين إلى قول الفيلسوف الحالم غاستون باشلار (أعلاه بين قوسين) في كتابه جماليات المكان، كي أنبش فيه عمّا أفتقده في محميتي الصغيرة من ظلال، وأشعر نفسي أمام عبارته هذه متلبساً بها في حالة تفتت عميق، رغم ما أزعمه من توتر نسبي ينساب منّي الآن حبراً على الورق، لكنه كان كافياً ليفتح لي طاقة دفينة في تلافيف الذاكرة، يعود بي تفتتي الراهن إلى حالة مماثلة عشتها، ويا للمفارقة ! إنها الغربة عن البيت، خاصة في أوائل زمنها، ففي كل مرّة تغربت بها بعيداً عن بيت الألفة أو عن

موطن أحلام يقظتي، كنت أفقد بها قيمة الأشياء من حولي، وأفتقد آناي البعيدة عن جسدي المتحرك، بلا معنى ضروري للحركة ذاتها .

.. تشعر أن الأشياء من حولك تسبح في فراغ، وأن كل ما خططته كان بائساً، وأنك تسقط في هوة سحيقة، وكلما أمعنت في السقوط أكثر، تفقد كينونتك تماسكها، ويأخذ الجسد طريقه إلى التفتت، تشعر أنه يفلت من بين يديك، وسرعان ما تعلق بأية تجربة تتعثر في طريقك، لأنها قد تكون السبيل الوحيد لك لتعود بك إلى الحياة، حتى يحلو لك التشرد في حيَّاتك الجديدة، وما أن تطعم لذتها، مدركاً أنه ليس من قاعٍ للهوة التي أنت فيها، تبدأ شيئاً فشيئاً بالتماسك والصعود، لأنك في كل لحظة تشرد عشتها، كنت تبحث عنَ ألفة ما، غالباً ما تكون غريبةً عنك، لكنها قد تكون كافيةً لتزيح عنك غربة المكان .

لكن مرارة التجربة التي تعيشها الآن، هي أنك تحيا حالة الغربة في وطن لا يتيح لك التشرد، وأنك تحيا حالة تفتت عميقة في بيت تفترض فيه ألفةً تفتقدها، يبدو لك البيت كأنه يفقد جدرانه من أثر دوي الرصاص والقذائف المتطايرة، تلتفت إلى أركانه لبرهة عاجلة، وأنت متربص عند بابه خارجاً مع أهلك هرباً مما قد يلحق بكم من أذى، تشعر للحظة أن سقفه ستطيره عاصفةٌ ما، وترغب أن تنتشله بيدك، مثلما تخطف طفلتك لعبتها المفضلة «دودي»، بعدما كرّت داخل البيت تبحث عنها وفي غفلةٍ منك، لكنك تعجز عن فعل شيء، ولا يبقى لك سوى جسدك الفار تختصر به ثبات المكان !

تدرك خلل المعادلة، وتفقد قدرتك على التوازن، تحاول خداع نفسك بأن الحالة التي تمر بها هي مؤقتة، لكن الوقت يبرهن لك أن حياتك المفترضة هنا ليست كما يحلو لعاديتك وعاداتك، فيبيت الماضي القريب الشبيه بالسلام حلماً، ويصبح الحلم وهماً، وتوقن هنا أن حريتك كإنسان تذهب وقت ما تريد وتعود إلى بيتك وقت ما تحب، وأن إرادتك كإنسان يكره ما يشاء ويحب ما يريد، كل هذا بات مفقوداً الآن، فقد اختنقت المسافات وضاقت بك الخيارات، وبت مسلوب الإرادة والحرية والحركة، يسرقها منك الجندي ومعه الدبابة والحاجز والبندقية، ساعياً إلى تشويه جسدك وكينونة المكان كما تبغي ذاته الغاصبة، الفاقدة في جوهرها للأمن والألفة مع ذات المكان، يخشى يوماً تقلبه عليه وانهيار جغرافيته المصطنعة .

لكنك تدرك ما فيك من سلب الآن، وتفلت منك في حفلات الرعب لغة المكان، تستسلم قليلاً، ترقب ما ينتظرك، وما أن يتملك من التفتت والسقوط، حتى تبدأ في البحث عن قشة للنجاة، ولأنك أيضاً تدرك أنه لم يعد هناك من جدوى للحراك، حيث الموت يجوس في كل مكان، فإنك تُمكث مكانك تحت سقف هذا البيت الآيل للسقوط، وهنا تنتظرك المفارقة، وأول الخيط للصعود والمقاومة، لترتق ما فيك من خلل وسلب ؛ إنه الثبات، أي ثبات جسدك لا فراره، وهنا في ذات المكان، حيث الثبات بات الرهان الأخير علىٰ بقائه، فامكث إذن أو استشهد !.

-III-

أتشبث الآن جيداً بهذه اللحظة من الكتابة، حيث شاءت صدفة متوقعة أن يخترق تداعيها دويّ الرصاص المنبعث من المستوطنة القريبة صوب مقبرة الشهداء المجاورة للحي، حتى الأموات لم يسلموا من رصاصهم، وليس في هذه الجملة أية مبالغة أدبية تزيد عن حرفية وقسوة الواقع أو فضيحة الحدث، لكن السؤال الوجودي الذي يطرح نفسه بقوة هنا هو: من يقضّ مضجع من، أهم الأموات والشهداء أم القتلة ؟!.. ولأن الأموات ليس بمقدورهم الإجابة، فإنها متروكة لا محالة إلى الأحياء المتورطين معهم في طرف السؤال (مَن؟) .

لا بأس عليّ إذن، إذ يمكنني التماسك كما يجب، لأمارس لعبتي أنا، أيضاً، معهم . هم يخترقون يومنا كي يتغلغل «التفتت» في عروقنا، ونفقد شعورنا بالمكان، وها أنا وغيري يقلبون على رأسهم المعادلة، ونقرأ تعالقنا بالمكان من طرف الذات، فنرهن لبيوتنا أجسادنا، نحمي لها ألفتها ودفئها، ونشكّل جدرانها، حيث ينغرس البيت (مقلعنا الأخير) وينغمس في عروقنا ودمائنا، هكذا يختزل الجسد المكان، يصبح صورة عنه، وكائناً متحركاً، يعقل صورته وتضاريس أوجاعه .

في لحظتي هذه التي أقضيها على البيت بالسهر والكتابة، فإني أعيد إليه ثباته وطمأنينته رغم عدوه المتربص الغاشم، وبذلك يصبح واقع بيتي حلماً، ليدخل في شفافية ما أضفيه عليه من ظلال جديدة، فلم يعد زمن البيت – والمكان كله – عادياً، ربما بات أسطورياً، حيث أجدني – كغيري – أفيضُ عليه من روحي محبةً خالصة، ليصبح ما بيننا شعوراً / شعراً ممسوساً ، كدله العاشقين وعطش المحبين.

أتلمس بنظري أركان البيت، وأجول في غرفه، أُشعر أشياءه بحضوري معها ؛ سرير النوم، ساعة الحائط، المدفأة، كرسي المكتب، الأسطوانات القديمة، الكتب النائمة في خدرها، شاشة الكمبيوتر المشروعة على الخارج، فنجاني الأثير للشاي، بل ومقعد الراحة، كل شيء ما زال في مكانه، أراها تفهمني الآن، وأشعر بابتسامتها وامتنانها لي، حيث ما زلت وزوجتي وطفلتي ندبّ في جوانحها حباً وصخباً، نزيل عنها الغبار، نداعبها بحضورنا، ونؤنس وحشتها، وهي ممتلئة تماماً بامتنانها، وقد كادت تفقد دفئها، همسها والتصاقها ببعضها في حنو الشتاء، كادت تفقد طقوسها اليومية معنا، وبدلاً من عطائها الرحب والصبور، باتت لفترة عصية نزقةً صعبة المراس، كأن الخبل أصابها، حيث كنت ألمحها تقف واجفة متزاحمة على بعضها، تُوسوسُ كل قطعة منها وعلى حدة خوفها للهواء، تبثه أنفاساً باردةً في الظلال، لقد أوغلت هي أيضاً في هوة من التفتت، ولم يكن ليمنعها شيء من الانهيار، لولا ما كان علي وأهلي أن نفعله، رغم ما في بقائنا حوَلها من قسوة، لكنها قسوةٌ جميلة ؛ هي قسوة الأبناء على الآباء .

-IV-

هل يجوز لي أن يتفتح ذهني الآن على مراحل تشكّل علاقتنا بالمكان على مدى تاريخ الحرمان الفلسطيني منه ؟.. لقد ظل المكان الفلسطيني ردحاً طويلاً أسير المخيّلة، لم نمارس فيه عاديتنا، وعلاقاتنا الطبيعية بالأشياء، أشعر – دون ادعاء النظرية – أننا مررنا بمرحلتين ذهنيتين من قبل في تعالقنا مع المكان، هما

مرحلة الأم ومرحلة الأب، ونحن نمر الآن بالمرحلة الأخيرة ؛ هي مرحلة الابن.

كأنه لا بد من ثالوث ما، لتكتمل دائرة الكينونة، وإذا تجرأت على قوانين الفيزياء، لقلت إن الثالوث هو صيرورة الحياة الأبدية، وسرّ تواصلها . دائماً لا بد من وليد ثالث، هو نتاج نقيضين، فإذا كان الموت نقيضاً للحياة، فإن الخلود هو ثالثهما ؛ هو هاجس الإنسان وسرّ وجوده و إصراره على البقاء والتقدم والمعرفة، ولولا إحساس الإنسان الدفين بالخلود، لولا هذا الجنين الكامن، هل كان يمكن للحياة أن يستقيم لها معنى، ما دام مآلها إلى نقيضها الموت !؟.

كذلك المكان الفلسطيني الذي ظل زمناً طويلاً حبيس أمومته، منذ النكبة الأولى حتى دخولنا عنوة إلى زمن أوسلو؛ الزمن الأول تماثل مع الحياةِ وأخطائها، والثاني جاء ليمثّل الموت وأوهامه .

وقد عبّر الأدب الفلسطيني عن المرحلة الأولى بصورة جيدة، حيث ظل المكان في مخيّلة الفلسطيني غائباً، يستمد تفاصيله من الذاكرة لا من الواقع، ولم يكن حال الفلسطيني داخل الوطن بأفضل حال من صاحبه في أماكن اللجوء، فلم يقدر الفلسطيني يوماً على امتلاك مكانه جيداً، لذلك لم يمتلك زمنه أيضاً، وظلت علاقته بالمكان علاقة استرجاعية ماضوية، يستعيده بالحنين المتواصل إلى مواطن اللهو والطفولة، وإلى جذور الآباء .

ظل مفتاح البيت معلقاً على صدره أو على حائط في أماكن اللجوء، وفي كلا الحالتين تحمل سيمياء الفلسطيني تجاههما دلالتين متلاصقتين، الأولى علىً الصدر، يضعه الفلسطيني كي يشكل لجسده حماية من «التفتت» في زمن اللجوء والغربة، وحماية أيضاً لكينونته وهويته المهددة، أما في الثانية على الحائط، يحمل المفتاح لمكان اللجوء دلالة التماهي مع المكان الأم، ليصبح صورةً عنه، يعادله موضوعياً، كي تجد الذات اللاجئة فيه ألفتها وهويتها المفقودتين . هذه المرحلة كانت فترة أحلام اليقظة وعنفوان الصبا، هي اشتياق البراءة الأولى إلى ظلمة وسكون الرحم، ولم يكن للفلسطيني فكاكاً منها، ليلثم بالمتخيل جراح الواقع وهوية الذات الممزقة .

بعد أوسلو، جنحت بنا العلاقة إلى قسوة لم يعهدها المكان منا، أردناه أن يكون الأب الذي يمنحنا المناعة والسلطة والمال، وفي كثير من الحالات كًانت تغيب تفاصيله الأولى، لقد كبرنا إلى الحد الذي بتنا فيه مراهقين، ننكر طفولتنا التيً غادرناها بقسوة مرغمين، وكدنا نأبى على الذاكرة أن تعيدنا إلى أمنا الساذجة، أخذنا نعبث بها، نتنطع بالحلم، ونمنّي الذات المراهقة بمستقبل قريب للواقع المشوه ؛ نختصر فيه شكل المكان من حلم الوطن إلى دولة وشهادة اعتراف من آباء حولنا . وبقدر ما نحن بحاجة إلى هذا الأب ونرفع له مطالبه، بقدر ما نرفضهً ونتمرد عليه، رغبةً بالتًحرر من أسر المكان والهوية، ولًعله لم ينج أحد، إلا من عصم ذاته من الخديعة، وجاهد فيها باحثاً عن تشكيل علاقة جديدة مع المكان . على صعيد الأدب تنامى الشعر، لكن الرواية الفلسطينية تعيش عصر انحطاطها، حيث «المشهد» ما زال في كامل حضوره، بكل تفاصيله المريرة والساخرة، بينما «الشاهد» يبدو غائباً، لم تسعفه بصيرته على قراءة ونقد المشهد .

لم تمنحنا هذه العلاقة الكثير من الراحة، ولم تعطنا شيئاً من الطمأنينة، وكان لا بد أن تنجلي على وهم المراهق وصبيانيته، الذي لم يعط لنفسه الوقت الكافي لينضج، ويغربل ما في مخزونه الأول من حقيقة وكذب، أو من جمال وقبح . لقد برهن لنا الزمن أن الحلم لم ينته، ليس لأننا نحن من شكله، لكنه واقعٌ المكان الأبي على خدّاع الذات هو من شكله وحافظ عليه، لقد كان هذا الطفل – الشيخ صبوراً إلى حد كان يجب أن نشعر فيه بالخجل من صبيانية المرحلة بأسرها .

... وجاءت حماقة هذا الرجل «شارون»، الذي نحمل له الفضل والشكر على حماقته، حين دخل أكثر الأماكن المشحونة بالحلم ، فانقلب السحر على الساحر، بعد أن عمت بصيرته عن إدراك مكمن الخطر في اقتحامه رحم الذاكرة المقدس مدججاً بالسلاح، وكان لا بد للمعادلة أن تتبدل، وأن تتفجر في ذواتنا أماكن البراءة الأولى، فعدنا طاهرين إلى حرم الذاكرة، ندثّر المكان بأجسادنا ودمائنا، لنجدد سيرة المسيح، نحمل له روح الخلاص، ونعيد إليه حرمته التي كادت تهترئ .

لا أدري إن كنا قد نضجنا بما يكفي ليحضر الشاهد فينا، أم أننا ما زلنا في بدايات بذور الوعي . ما أشعر به جيداً أن علاقتنا بالمكان ليس لها أن تستقيم دون أن نراه طفلاً لنا، يحتاج منا الرعاية والحماية والألفة، كي يصلب عوده، وينمو كائناً على شاكلتنا، نكون له آباءً وأمهات رحماء عادلين، ليأخذ ملامحه منّا، أي من الذات التي تهبه ألفتها، وتضفي عليه ظلالها، ليُعرف بنا، ويشير من رآه إلينا، ليزهر يوماً وطناً للجميع، يمنحنا كرامة العيش، بقدر ما نخلص له في العطاء والبناء .

-V-

إنّ حالنا مع الغرباء لا يبتعد كثيراً عن قصة امرأتين، تنازعتا يوماً عند القاضي على طفل، ادّعت كل واحدة أنه ابنها، وكان القاضي نبيهاً، فأوعز إلى قطع الولد إلى قسمين، فأبت الأولى، ووافقت الثانية، فكشف القاضي بذلك زيفها، وأعاد الطفل إلى أمه الحقيقية . لكن مسرح التاريخ ليس بمثل بساطة هذه القصة، فليس القاضي عادلاً، وليس الوطن كائناً بيولوجياً فحسب، وإذا كانت دلائل السياق تشير إلى قسمة ضيزى، فإنه من العبث أن تقسّم الذاكرة .

سيكشف الستار قبل سدوله عن «الثقافة» حصناً أخيراً لها، وإن تراضى المؤلف والمنتج ومعهم المخرج وسائر الممثلين على نهاية ما، فإن أحد الممثلين الثانويين، والذي بالكاد يطل برأسه من أحد أطراف المسرح، ألا وهو المثقفً، عليه أن يخرج من خلف الستار بطريقة «بريختية»، ليدرب الجمهور على أنه ليس هناك من نهاية سعيدة، وعليه أن يعيد عليهم قراءة ما وراء النص، كي يعيدوا بدورهم ترتيب المشهد .

---

* كاتب وشاعر فلسطيني يقيم في غزة .

59

المشي وحيداً على رصيفٍ وَعِرٍ

أشرف الزغل*

هل سبق لكَ أن كتبتَ الشعر من قبل؟

سؤال وجهته لذلك الذي يتمترس خلف قصائد حائرة ما بين الجارور والجريدة .. لذلك الذي هو أنا. أصاب أحياناً بشعور قوي يقول لي إنني لم أكتب في يوم من الأيام، وإنني لن أكتب بعد شيئاً في أي شيء. قد يحتلُّني ذلكَ الشعور لأشهر، يرافقه إحساس بالبلادة.

نظرياً وفي مختبر اللغة .. يتشكل الإنسان من حيث هو ذات في اللغة وباللغة، إذ هي وحدها التي تؤسس في حقيقة الأمر مفهوم (الأنا) ضمن واقعها الذي هو واقع الوجود. وحين تصبح اللغة أداة الأنا القائلة و/أو الكاتبة، يحار المنكشف (الشيء) أحياناً كاشفه (الذات) ويشغله في آنيته، حيث يصبح ميدان الكشف عن طريق اللغة ميدانَاً يشغل فيه الخطأ حيّزاً كبيراً قد يهدد بإمكانية ضياع المختبر، حيث يكمن الخطر في اختلاط أنقى الأشياء بأكثرها غموضاً. الشعر يجول في هذه المنطقة حيث يختلط الجوهري باللاجوهري، ولكي يتأكد المتكلم من ذاته أو الكاتب من ذاته المتحولة، ربما عليه أن يدرك ذلك إدراكاً حقيقياً، وإلاّ دخل في باب سوء الفهم. قد يكون هذا التدخّل النظري مساعداً في فهم المشكل المتجلي في صياغة المنكشف كموجود أو بالعكس، تلك الصياغة التي تربك الوعي الصادق، ولا أدَّعي الصدق بقدر ما أدّعي الارتباك.

عملياً، وفي المنحى الشخصي، فإن ذلك الحدث الشعوري ليس طارئاً، بل كأنه اعتيادي، فقد عايشته من قبل، وها أنا أعايشه منذ آب، ولا أخجل من ذلك، فالكتابة من وجهة نظري المتواضعة ينبغي لها ألا تكون عادة، بل عليها أن تكون فعلاً يسير ما بين التصميم والمغامرة.

... و(الانتفاضة) بتداعياتها ليست سبباً في انقطاعي عن الكتابة، فأنا لست من أنصار التوجه الذي

يقول إن القلم يقف عاجزاً أمام هذا أو ذاك من (الأفعال) و(الأحداث) و(الأشياء)، وإن الكتابة تقصِّر في مقاربة ما يثور في صدور الناس ويعتمل في قلوبهم. فما في صدور الناس لغة وقعت في العشواء قليلاً، وتنتظر من يرتبها لكي تخرج إلى العيان بلونها وبنكهتها وبرائحتها، وإلا صارت متعفنةً في صدورهم دون أن يدري أحد بها.

بعد شهرٍ واحدٍ على بداية (الانتفاضة)...

ها أنا أحاول بمنطق نفعي أن أكتب في (الانتفاضة) .. ولمَ لا، سوف تكون الكتابة الآن استدراكاً موفقاً، خصوصاً بعد الاستنفار العام لكتاب الداخل والخارج، والذي ظهر جلياً في الصحف والمجلات.

إذاً .. سوف أكتب قصيدة، وربما مجموعة من القصائد يكون لها مساحة هناك في ما بعد الحصار، وهي فرصة كي أستعيد لقبي قبل أن أصبح مُدَّعياً، وفي نهاية الأمر، أكون قد كتبت شيئاً عن شيء.

لعل في تسلسل هذا الأمر تواطؤاً ما مع الادِّعاء الذي أحاول الهرب منه على طريق ملتوية، وعلى أمل ألا يصفعني الادِّعاء خلسةً في نهايتها. ولكن من يدري؟!

ابتدأت بوضع خطوط عامة للقصيدة المنتظرة؛ ذات بعد إنساني .. مقارب للوطني .. ذاتية .. تحمل مشاعر عامة .. عفوية النمط والمعنى .. قصدية اللغة والمبنى .. قصيدة جديدة المفردة، فريدة المشاهدة .. قصيدة ليست كالقصائد .. ستكون لها رائحتا النرجس والكاوتشوك ولونا النرجس والدم ونكهتا النرجس والغاز المسيل للدموع.

ومن المؤكد أن جهداً حقيقياً يجب أن يبذل من أجل ذلك؛ جهداً مركّزاً بعيداً عن التشويش، بعيداً عن الصوت الأعلى والضوء والأكثر كثافة. لن أستطيع أن أوقف القصف الليلي الدائم ولن أستطيع أيضاً إخماد القنابل المضيئة والأضواء الكاشفة ولكنني سأكتب قصيدة من أجل ألا أكون مريعاً كقصف ليلي أو كقنبلة مضيئة.

عليَّ أن أقلل من تنقلاتي ما بين القدس ورام الله (بين المنزلين: منزل العائلة ومنزلي.. والحنين أبداً لمنزل ثالث)، لأن ذلك يستنزف جهداً ووقتاً أنا في أمسِّ الحاجة لهما، بالرغم من المشاهدات القيمة المتعلقة بمادة النص على طول الشارع الرئيسي، حيث الكثير من المفردات الطازجة، والتي هي على أهبة العناية بأي تداعٍ شعري. هنالك ما يُكسب ذوقاً تراجيدياً فائقاً، ويمنح الكآبة أشواطاً من القدرة على ارتجال الشفقة، شفقة الكل على الكل.

هذه المفردات سيكفيني منها – بعد أن أهمَّ بها – رفاهية ترك ظهري عارياً أمامها لأتحقق من عزلة مرتبة، ربما ستعود عليها وعليَّ برؤيا أو بتأويل. سأتقمص دور الراعي الذي يحشو نفسه في نايه، بعد أن ملّ من حشو نفسه في الناس؛ خيرهم وشرّهم .. أحتاج إلى عزلة مرتبة .. أقَطِّر فيها الوحي ..

عليّ، أيضاً، أن أقلّل من مشاويري إلى المنارة (مركز رام الله)، حيث ينقسم الناس إلى جنود ومراسلين، وأنا لا أريد أن أرى جندياً في أي زي.. هكذا قررت في تصريح خطير لنفسي. أريد أن أركّز أكثر، فالمهمة

كبيرة والهدف أكبر. لا أريد مصادقة أي مراسل، سأكتفي بما أشاهده في طريقي إلى العمل، وبما يقترحه عليَّ التلفاز.

بعد شهرٍ واحدٍ من العزلة وشهرين من (الانتفاضة)..

أصدقاء اتصلوا أو أتوا يزورونني بعد أن قلقوا من غيابي، فأخذوا يفسرونه بالتفاصيل الملفقة حتى وصلوا إلى الحدود القصوى. كنت أمازحهم وأقول لهم «إنني في فترة حمل».

كانوا يأتون بأخبار المدينة الليلية، وكانت ملامحهم تنم عن قلق وحسرة عندما كانوا يروون النكات وأحاديث النميمة وأخبار النساء.

كنت أخشى المشي وحيداً إلى المنارة، ليس خشيةً من القصف ولا من الخطف، وإنما خشية من رصيف وعر كان يقرضني الخطوات بقسوة. رصيف عريض كأثر عابرٍ تائه، وضيق كأثر رصاصة بين الأصابع.

بعد شهرين من العزلة وثلاثة أشهر من (الانتفاضة)..

جاءني صديق إلى البيت، خرجت معه بعد تردد طويل إلى المنارة، ومن هناك توجهنا إلى زرياب (مقهى ومطعم). جلسنا نتحدث فيما وصلت إليه الأمور، وفيما ستصل إليه، وفيما سنصل إليه ويصل إلينا .. إنه حديث المراسلين الذي تكرس مع الأسابيع الأولى من (الانتفاضة) ولا يزال ظاهراً مع خفوت واضح.

ذلك الحديث الذي كنت أحاول تجنبه بكل ما لدي من قوة ومن ضعف ومن فوبيا. رأيت بعض الأصدقاء هناك وسمعتهم، لقد انتقلت إلى معظمهم عدوى حديث المراسلين، وكان بعضهم قد احترف التحليل والتنظير وأسهب في ذلك .. قلت في نفسي: هنيئاً لهم.

صادفت يومها حسين البرغوثي .. سألني عن أحوالي .. قلت له:

إنني معتزل قليلاً، لا أريد أن أرى الناس، أريد أن أركِّز .. لا أريد أن أتشوش .

فقال: إذا أردت أن تركّز .. عليك أن تكون بين الناس.

لم أعلِّق، وكان ما يزال الخوف يحتل مساحة عندي، ويمنعني من الخوض في نقاش حول مصدر وعي النص، هل هو الفكرة أم مرآتها؟ أم الفكرة ومرآتها في آن واحد؟. ما الذي يمنح الفكرة تراجيديتها لتكون هي نفسها مرآتها، ولتكون حقيقتها؟

هل النص في (الانتفاضة)؟

هل التراجيديا في (الانتفاضة)؟

هل النص و/أو التراجيديا فيها أم في الناس؟

أم أن النص والتراجيديا لا فيها ولا في الناس؟

هل نحن أبطال؟

يقول نيتشه: «نحن أكثر بطولة مما نعتقد، لأن من يطل على المحرقة، لا ينتصر على الألم، بل يفرح بأنه لا يشعر بالألم حيث توقعه».

هل ينطبق ذلك على نحن؟.

(الانتفاضة) .. ها أنا أضعها بين قوسين .. تعرفون لماذا؟ لأنني لم أستطع إخراجها من بين القوسين بعد وربما لن أستطيع.

مررت قبل فترة وجيزة على (مواجهة) ما بين أطفال فلسطينيين وجنود إسرائيليين، وسرعان ما خطرت لي أغنية شائعة للأطفال: «الفستان في الخزانة، والخزانة مسكرة، والمفتاح عند الحداد، والحداد بدو بيضة، والبيضة عند الجاجة، والجاجة عند الفلاح... الخ».

ضحكت لهذا الخاطر، وتذكرت أنني ما أزال دون قصيدة .. لكنني اكتشفت أنني أركِّز بشكلٍ أفضل.

---

* شاعر فلسطيني يقيم في القدس .

ثلاثة تشكيليين

- إبراهيم المزيّن
- جواد إبراهيم
- فايز السّرساوي

«القلب المثقوب بالطاووس»

إبراهيم المزيّن*

من الذي قتله؟ وأسئلة كثيرة .. حتى يصرخ أحدنا مثلاً: «بس جنّنتينا» .. وكان هذه المرّة أخاها. تتوارى خلف ركبتها التي كانت قد ضمّت بين يديها، وتبقى عيناها معلقتين مع ألف سؤال وشاشة صغيرة تتابع من خلالها الصور .

أعود إلى شخوصي الفاغرة التي أهيئ للحياة، حيث لم تكتمل ملامح ما ستكون عليه. أتحمي مبنىً معداً للقصف ؟! سرعان ما أنصرف عن هذه الفكرة، فقد شاهدت ذلك عبر شاشات التلفاز، عندما كان آلاف الأشخاص فوق جسر في بلغراد لحمايته من قصف قوات التحالف، ذكرني ذلك بإميل حبيبي عندما قال مرة في حديث جانبي بعد نقاش روايته «خرّافية سرايا بنت الغول»: إن الرأسمال، أيضاً، له أخلاقه.

مات يهودي .. ينتشي ابني .. يكرّر كي أسمع .. أزداد خجلاً ..

سأعترف لكم أنني قلق جداً من فكرة الكره لديه (أقصد ابني)، ولأنني لا أريد أن يقول لي: إن اليهود احتلوا، قتلوا، شردوا، وألف شيء آخر .. لذا لم أسأله لماذا تكرههم ؟. وكنت أود أن أقول له ألا يصمم، وأن يستخدم جنوداً إسرائيليين بدل يهود .. ولكن أين أذهب بفكرتهم عن الدولة اليهودية النقية .. نقاوة العرق مرة أخرى :

«لكنه الخجل
هو الذي يطوّقنا أحياء
خجلٌ من شر لا حدود له
خجل من جزّارينا التافهين
هم دائماً، هم دائماً
نفس محبي أنفسهم».

صمت .. ويطل من الشاشة شيء يقول: ليصل عدد القتلى والمصابين إلى ثلاثمائة .. ما الذي يحدث؟ أنظر إلى كائناتي حيث أفواهها وأعينها ما زالت فاغرة، ولكن بجدوى هذه المرة، وأتخيلها وقد أخذت أماكنها داخل أربعة جدران تقف كخيال الحقل .. يدخل الجمهور فرداً – فرداً، ووراء كل واحد يدخل يغلق الباب تماماً. هكذا ستكون لغة العرض، وحيث لا يستطيع أي من الذين يدخلون التجول بسهولة .. فقط شخوص مصنوعة من الورق. داخل أربعة جدران .. وإضاءة خفيفة .. المادة التي صنعت منها هذه الكائنات هي الورق .. لا ذاكرة لها غير ذاكرتها الورقية: ربما كانت مرّة رسالة على مكتب أحدهم الذي يستشهد الآن، وإذا رأيتم في ذلك مبالغة .. فورقة من دفتر قراءة، حساب، ما شئتم .. تواليت مثلاً!! ببساطة شخوص من ورق .. لا عمّة زرعت ريحاناً في حديقتها الصغيرة كي تغرسه في الطحين على رؤوس النسوة القادمات إلى عرسه، (أقصد الذي يستشهد). مرّة قال لي صديقي عندما يشمّ رائحة الريحان: إنه يشم رائحة عُرس، نعم هناك من يشم العرس .. لا جيران سيطلقون اسمه (أقصد الذي يستشهد) على مواليدهم الجدد، لا سائق سيقول لك: «يا سلام يا ولاد مبارح لسه وصلته للمدرسة»، ولا مدرّس يدّعي بتفوقه (أقصد من يستشهد) فالشهداء، دائماً، يطلعون الأوائل .. أما جارنا تحسين الذي استشهد في الانتفاضة السابقة، ومنذر الذي تسرب من المدرسة قبل أن يستشهد، قال عنه مدرّسه، طبعاً، سابقاً: كنت على ثقة بأنه لو لم يستشهد (يقصد الذي يستشهد)، لرجع إلى المدرسة ولأخذها الأول، أنا أعرفه، كان شعلة ذكاء (كان يقصد الذي يستشهد) رحمه الله.

ثلاثمائة قطعة من الورق، تبث فيها الروح لتنتصب في فراغ غرفة وإن كنت أودُّ قبل هذه الانتفاضة أن أغرسها على شاطئ غزة، وأن أغرس معها شخوصاً من لحم ودم حليقي الرؤوس داخل أكياس نايلون، يقول كل واحد منهم ودون أي انفعال وبشكل تراتبي مثلاً:

«حلو! هنا سيولة، وسريان، حركة
سفر، قالت: وأنا أبرٌ من ذهب، قلت.
على كتفيها شالاً أسود كنتُ،
ويمطر ظلٌّ
جبال عينيها».

وعندما ينتهي الأول ويبدأ الثاني، تُسمع من الأول همهمات جبرش، فهو لا يصمت، وعندما ينتهي الثاني ويبدأ الثالث، ينضم الثاني إلى الأول في الجبرش. طبعاً الشخوص التي بينهم تشاركهم (أقصد الشخوص من ورق)، أليست فاغرة .. نسيت أن أقول لكم إن الشخوص من لحم ودم عند الإلقاء تأخذ شكل الـ (Dead Mask) .

أحببت هذه الفكرة، وتحدثت مع المخرج صبحي الزبيدي عن إمكانية تصويرها حتى أتمكن من عرضها، طبعاً، في المدن التي لا بحر لها .

هل «القبيبة» لها بحر؟ أمي قالت أن لأمها أرضاً يضربها الموج. فكّرت في إمكانية العرض هناك ولكن منذ ستة عشر عاماً، وأنا أعرض لبعض أصحاب تلك المدن (أقصد يافا، الرملة، اللد، أسدود ... الخ،

وأقصد، طبعاً، الأصحاب الأصليين)، فهل أودّ أن أعرض للأرض .. لـ«القبيبة» نفسها؟.
بالأمس سمعته يقول (أقصد ابني): «كل الحلول اللي بتروحناش ع البلاد مرفوضة». حدثني صديقي حسين مرة، أنه رأى برنامجاً في التلفاز عن الحرب العالمية الثانية، في البرنامج سألت المذيعة أحد الفلاحين الروس ماذا كان يفعل إبّان الحرب العالمية الثانية؟ فأجاب بأنه كان ضدها. كانت هذه المرة الأولى التي انتبه فيها إلى لفظة البلاد، وتساءلت: إذاً أين نعيش نحن؟ في اللابلاد !!! أليست غزة بلاداً؟! طبعاً إبني ورث الكلمة ولم يخترعها، وسرعان ما تبين لي بأنني أنا أيضاً أستخدم الكلمة نفسها وربما معظم اللاجئين .
أفكار .. أفكار مثل كلمات .. كلمات.
قال لي مدرّسي اليهودي مرة: الأفكار مرمية بالشوارع. الأفكار كأفكار ليست بالشيء المهم .. المهم وضع الأفكار موضع التنفيذ، فإن عملت (يقصد الأفكار) تكون جيدة. يومها أعجبتني فكرته، وعملت على ذلك!.
ووددتُّ لو أكتبُ عن جودة الفكرة:
بالنسبة إلي، إذا أخذت، مثلاً، فكرة زرع شخوص من ورق وشخوص من لحم ودم، فليست أكياس نايلون على شاطئ البحر، أو زرع هذه الشخوص داخل جدران أربعة، تتساوى عندي مع فكرة المشي على الماء، أو شق طريق في الماء (أقصد البحر) فالزرع على الشاطئ والمشي على الماء، أقرب إلى قلبي من فكرة زرع بين جدران وشق طريق في الماء !! سأقول لماذا؟
ففي الفكرة الأولى وفي فراغ مفتوح ومكوّناته، بحر، أرض، سماء، شخوص من ورق، شخوص من لحم ودم، أكياس نايلون وكلمات مونتير (حسين البرغوثي)، تحيل إلى مناطق أبعد، أكثر راحة، أكثر سلاماً، لا ردود أفعال، هناك وجوه على شكل أقنعة ميتة (Dead Mask)، تحول الكلام إلى أصوات، أي تميت المعنى المنطوق المأخوذ من تاريخ الكلمات وتحوله إلى صوت لا معنى له غير خلق معنى. قال مرة عازف آلة تشيلو ياباني لراقصة ترتجل عزفه بجسدها: «يجب عدم إتلاف الموسيقى عبر الرقص»، يومها أحببت ذلك وقلت، أيضاً: «لا بد من موسيقى لا يستنزفها العزف» ..
ففي المشي على الماء، لا يُستنزف المشي في سؤال الوصول .. هناك صوت بدل الكلام ووصل بدل الوصول.
وفي الفكرة الثانية: ردود فعل، اندفاع، فبمجرد وضع الشخوص الورقية داخل جدران أربعة: أنت تحدد الفضاء .. تحيل إلى الغلق .. تخفف الإضاءة .. تحيل إلى القلق .. الخوف. كذلك شق الماء .. ردة فعل .. مصيدة (أقصد مكيدة)، تريد أن تعاقب. تحزن كل هذه المناطق التي تتعلق بالانفعالات التي تريد أن تحدث، أن تفعل، أن تصدم أن تُمثل .. الخ، بالنسبة إلي، لا تشكل مناطق عملي الفني.
ليس صدفة أن تكون الفكرة الثانية وليدة عدوان يتعرض له شعب من أتباع من تعرض لعدوان فرعون. وهكذا تختبر الأفكار من خلال لغة العرض الخاصة بتلك الأفكار، واللغة هذه بدورها ميزان حرارة المادة المعمول بها، إذ لا مادة خارج فكرة ولا فكرة دون لغة عرض .. ولغة العرض هذه هي نفخ الروح إذا أردتم. المفهوم ما نريد أن نوصله وما جديدها .
«من الضروري أن تكون حديثاً تماماً»، علق كونديرا على هذا المقطع لرامبو من «فصل في الجحيم»،

والذي لم أستطع أن أعثر عليه في «فصل في الجحيم» الطبعة العربية . يقول كونديرا: «إن الحداثة تختلف غداً عما هي عليه اليوم، وإنه من أجل الضرورة الأبدية للحداثة، يتعين على المرء أن يكون مستعداً لخيانة مضمونها القابل للتغيير .. لخيانة شعر رامبو لصالح عقيدته» .. انتهى كونديرا.
شيء آخر أود أن أضيفه إلى هذه الأفكار، وهو أنني أخشى على الإبداع دائماً من سؤال الجدوى .. «أنا أحذر الجَدوَديّين»!.
قال لي مرة أحدهم، وكان يعتقد بأنه يفهم بيكت: لماذا لا ينتحر بيكت؟ قلت له يومها: هل سمعت ما قاله بيكت: «أنا لا أستطيع ولكنني سأستمر». طبعاً لم يسمع، طبعاً لم يقرأ.
«إلهي إن أحببتك مخافة من النار فأحرقني بها، وإن أحببتك طمعاً في الجنة فاحرمني منها».
إذاً، قولوا لي ما جدوى الحب هنا عند رابعة العدوية ؟! طبعاً لم أقصد إجابة والحال هكذا. أخذت أتراجع عن فكرة زرع الشخوص في الغرفة بما أنني قد ذكرت في البداية وفي مكان ما خيال الحقل، خطر لي أن آخذ خيالات حقل وأذهب إلى مفرق الشهداء (نتساريم)، أزرع هذه الخيالات في حقل هناك، وحيث إنه لا يوجد ما تحرسه خيالات الحقل سوى أرض رسمت عليها الجرافات جنازيرها (أقصد الجرافات)، سيدرك جندي ما بين مكعبات الباطون العملاقة التي لا يعرف الإنسان كيف يدخلون أو يخرجون منها .. ولو كان المنتفضون يبحثون عن الجدوى، لما كانوا يقذفون هذه الكتل العملاقة بالحجارة. قلت: سيدرك الجندي الذي لا أعرف كيف يمكن رؤيته أنها ليست مجرد خيالات حقل، فأين الحقل الآن؟ وسيعرف أن هناك حيلة، هكذا سيظن في البداية. لنفترض ونريح أنفسنا بأنه سيعرف أنني أنوي القيام بعمل فني، لذا فهو لا يتعجل جنوده في إطلاق النار عليّ، لا يطلقون النار على فنانين، هكذا يحبون أن يُنظَر إليهم (أقصد الجنود) فلا يقتربون مني، ربما سيحاول بعضهم إذا ما تأكد بأنه لا يوجد منتفضون بجواري، ربما سيحاولون أن يتصوروا مع هذا الأوبيكت .. صحيح أنني لا أرى كاميرات ولكنني متأكد مثلهم أنها (اقصد الكاميرات) في مكان ما، لذا يتلهفون على أن يتصوروا معها ويظهروا بذلك كأنهم محبو فن، حضاريون رغم كل الموت ..
إذا هناك كاميرات. لقد قال لهم مرة وزير دفاعهم في الانتفاضة السابقة اسحق رابين احذروا الكاميرات. إنها مزروعة في كل مكان وأنا بدوري سأعرف قدرة الكاميرات وسرعتها في النقل. وبما أنني أكره أن أعمل ضد نفسي .. استبدل خيالات الحقل فوراً بشخوص فاغرات .. أزرعها على أرض مفرق الشهداء أدعوهم للصورة (اقصد الجنود) في مواجهة الشخوص الفاغرة، سيفهمون المعنى بأسرع ما يمكن .. توتر على الوجوه كلها .. تُشهَرُ الكاميرات من كل الجهات باتجاه كل الاتجاهات .. مصيدة يقول الجندي ويغلق بكفه أقرب كاميرا له .. زمن حقيقي بالنسبة للصحافة . أحب الفكرة . أذهب إلى أقصاها، لا أحتاج «صبحي الزبيدي»، ربما سأطلب نسخة من الصحافيين فيما بعد، لأعرضها في المدن التي لها بحار والمدن التي ليست لها بحار.
(كانت تيريزا في «خفة الوجود غير المحتملة» تلتقط صوراً للدبابات الروسية والجنود في شوارع براغ وقت الغزو لتشعر أنها قوية لأنه سيتم نشر صورها في الخارج .. هكذا قرأها الصحافي مايك.
يقول كونديرا بصدد تيريزا : عندما تصبح الحياة العامة في غاية الحدَّة بالنسبة لتريزا فإنها تحررها

من اهتماماتها الخاصة .. إنك تجد نفسك فجأة وقد انغمست في أحداث دراماتيكية وهُددت بالموت وحُوصرت بالمأساة ومع ذلك تشعر أنك على ما يرام .. لماذا ؟ لأنك قد نسيت حزنك الخاص).
هناك إجهاض لحياة ما إنهم يحاولون منع شخوصي من الحياة، هكذا سأقول في كل المدن .. يتدخل جندي ربما قادم من أثيوبيا، لا يفهم بالإيماجولوجيا وثقافة الإيماجولوجيا من أصله .. يصوب نحوي يقتلني وبالتالي يقضي على شخوصي التي لا تستطيع إلاّ أن تشهد . أعدل عن الفكرة برمتها . فأنا أحب الحياة ولا شيء يساوي موتي .. بصراحة تتلبسني فكرة المساومة من أجل الحياة.
دائماً الأشياء صغيرة في مقابل الحياة فأنا لا أحب أن أموت من أجل أي شيء لأنني لا أعيش من أجل أي شيء.
لا بأس، سأخجل قليلاً عندما أسمع خبر استشهاد رسام متواضع يسكن قرب (نيتساريم) أو (نيتساريم) تسكن قرب مسكنه .. قد قُتل .. وسأعرف حالاً مَن قُتل.
كنت قبل أيام وفي معرض الكتاب بغزة أقف قبالته يفصل بيننا مكتب متواضع، لأسأله عن سعر (ستندال)، وبإجابات سريعة وبعفّة عرض نفسه روائياً يقترب من نهاية الجزء الأخير من روايته وبوعد بإحضارها لي لقراءتها عند انتهائها آخذ (ستندال، فلوبير، بانيول) وأضعهم في كيس نايلون .. أسلم عًليه .. سأقول لكم : كانت له ابتسامة ساحرة كان قد شيعني بها .
إذاً ، مات الشاب ذو الابتسامة الساحرة، ولم تكن هناك أية كاميرا، وسأرى في ذلك حسن حظ لأن مع الكاميرا لا تكون إلاّ رواية واحدة، وهذا يغيظ أي شرقي، أما والحال هذه فسيكون للشاب ذي الابتسامة الساحرة (عبد الحميد) عديد روايات، وستبقى ابتسامته معلقة هناك حيث وجد: ديليس، المركز الفرنسي، شاطئ البحر، بعض شوارع غزة، وفوق هذا حتماً ستملأ هذه الابتسامة منزل حبيبته في باريس.
ألملم شخوصي وبكل هدوء أضعها في توابيتها مع عدم يقيني من موعد بعثها، أضعها على الرف المعد لها إلى يوم قيامتها، أتذكر:
«إن السمك عندما ينتحر يذهب إلى الشاطئ وعندما ندفنه نعيده إلى البحر». سيأتي الكهربائي بعد قليل وسيخبرني كيف أستطيع أن أميز بين الزوارق الإسرائيلية والفلسطينية، وسيخبرني أن بيتي جميل، وسيخبرني أني فنان في اختيار ثرياتي، وسيخبرني أنهم كل ليله يقصفون (يقصد اليهود) هو الآخر يستخدم اللفظ نفسه وسيلكزني ليريني سقوط الشمس في الماء وسأمتعض وأشير له إلى مكان تركيب الثريات وسامسع التلفزيون يسأل عن الملايين وسترقص عناة ابنتي بحرية لم يسبق لها مثيل ولا أخفيكم بفرح أيضاً ترقص (أقصد ابنتي) ولا أخفيكم أيضاً، أنني أحببت ذلك وعندما تذكرت أن بيتي المشرعة نوافذه إلى البحر سيبدو من زاوية البحر كمسرح دمى ترقص فيه دميتي وأن ذلك ربما يعجبهم أي الاسرائيليين الجنود وربما يصفقون فتسقط أيديهم عندما يرقص زورقهم بدوره أقول تسقط أيديهم على الزناد خطأ!
لم أحتمل المشهد .. أحضن ابنتي التي تدفعني لتستمر في الرقص، أنتبه لتوي أن الكهربائي لم يتوقف عن الكلام لأقبض عليه يقول: «ما في زي الأطفال، ولاعبالهم الدنيا، ولا عارفين إشي، صحيح أحباب

الله». تنتبه عناة بدورها لكلامه ثم تسأل : بابا ماذا يقول.......؟!

*** فنّان تشكيلي يقيم في غزة .**

بين الرصاصة والحجر

جواد إبراهيم*

الأشياء العظيمة يجب أن نتحدث عنها بحذر، أو أن نسكت.

هذا ما قاله نيتشه، وهذا ما سأحاول فعله، علّني أستطيع الدخول في تفاصيل الأشياء، لأن البحث في التفاصيل يعطي الأشياء قيمة أكبر، وهذا ما يتيح لي النبش في شقوق المكان، بأصابع متعبة تعوَّدت البحث والتجريب.

خرج رسّام إلى الطبيعة ومعه لوازم الرسم، وطبق من التفاح وضعه إلى جانب الحامل، وأخذ يتأمله. لم يكن راغباً في رسم شكل التفاحة ولا لونها ولا بريق قشرتها. كان يريد أن يرسم كنهها، أو كما قال: «تفاحيّة التّفاحة»، وبقي الرسّام ينظر مذهولاً إلى أن أخذه النوم. وجاء بيكاسو يتجوّل قرب المكان، مرَّ بالفنان النائم، ورأى اللوحة البيضاء وطبق التفاح، فأكل التفاحات، وواصل جولته. عندما استيقظ الرسام، لم يجد في الطبق إلاّ بزر التفاح، وفهم ما عليه أن يرسم.

هل كان بيكاسو على حق فيما فعل؟

هل أراد بيكاسو أن يترك رسالة مع بزر التفاح بضرورة تغيير النموذج.. «التفاحة»؟

هل فهم الفنان فعلاً ما عليه أن يرسم؟

أسئلة كثيرة تتعلق بالنموذج وتغييره، تطرح الآن في ساعة الضيق، المولودة للكوابيس والخوف من القادم، أحياناً، والباعثة للأمل، أحياناً أخرى.

مع هذا، وفي ظلّه، يتجمع الزملاء للعمل في المكتب المطل على رام الله، تلك المدينة الصامتة والمترقبة للحدث.

السيارات تقطع الشوارع بحركات رتيبة، لا تسمع غير أصوات محركاتها واحتكاك عجلاتها بالشارع، وبعض الأشخاص يسيرون بتثاقل على الأرصفة المرهقة، ومستوطنة «بسغوت» تغرس أعمدتها في

قمة «جبل الطويل»، وتطلّ على المدينة برائحة الموت والرعب، أبراجها العالية تشعرك بأنها تستطيع الاتصال بكل مكان ومراقبة أي مكان.
نشرب قهوة الصباح التي تغيّر طعمها، وأصبحت تشدّك إلى بيوت العزاء، لتسري في جسدك رعشة لا تدري هل هي رعشة الخوف، أو رعشة التحفز، أو رعشة ترقّب الآتي.
نستعرض أحداث الأمس بتفاصيلها الصغيرة ومفاجآتها.. المسيرات، الشهداء، القصف، المفاوضات، القاتل وتنفيذ جريمته. الجميع يتقاطعون بالكلام. كل يريد أن يسبق الآخر، ليحكي حكايته. يتحوّل الكلام أحياناً إلى ثرثرة، يسود الصمت لحظات بعد أن يستهلك المخزون، ثم يتذكر أحدهم شيئاً ما ليعود، بحماسة أكبر، للحديث عن الحدث بتفاصيله المرعبة، ويعود من جديد طرح السؤال.
يدعوني أحد الأصدقاء للقيام بجولة في المدينة. نغادر المكتب الممتلئ بدخان السجائر والأسئلة. الطقس جميل، وهواء الصباح يملأ رئتيك ليطرد الدخان، لكن، لا شيء يستطيع أن يطرد الأسئلة وقساوة المشهد، نعبر الشوارع متجهين إلى ساحة المواجهات. يشير صديقي، بثقة العارف، إلى أن هذا الشارع غير آمن بعد السادسة مساء، حيث تنتشر فيه القوات الخاصة الإسرائيلية. نتابع السير ليشير إلى شارع آخر. هنا السيارات والمارة عرضة لإطلاق النار، لأن القناصة الإسرائيليين يتمركزون في تلك البناية، نتابع السير حتى نصل إلى ساحة المواجهات.
أشجار الدفلى والنخيل التي تفصل بين الشارعين تشهد، بصمت، على المواجهات اليومية، بقسوتها وجماليتها، برعبها وأملها، هي لعبة الموت والحياة.
مساحات من الشارع تختفي تحت الحجارة وبقايا الإطارات وأسلاكها، وما تبقى من الشارع يزداد سواداً بفعل الغبار الأسود المنبعث من الإطارات المحروقة، الذي، بدوره، لوّن الحجارة، ليصبح الشارع وما عليه يتدرج بين الأسود والرمادي. المنازلة لم تبدأ بعد، المكان صامت تفوح منه رائحة خانقة تتسلل إلى أعماقك عبر جميع حواسك، هياكل السيارات، التي تشكّل متراساً، تقطع الشارع على شكل كتل في الفضاء تمّ تركيبها بإتقان، لتصبح شريكاً في المواجهة، طارحة إشكالية الفن للفن، وغائيته، وفلسفته، ورسالته.
الوقت هو الصباح.. المكان خال من الشبان والفتيان والمتفرجين إلاّ من اثنين لا يزيد عمر الواحد منهما على عشرين عاماً، يتجوّلان بهدوء، دون أي فعل، هكذا كان والدي رحمه الله، يصحبني معه، أنا ابن الثامنة، إلى صلاة الفجر قبل الأذان بساعة أو أكثر، لأكتشف أن المسجد خال من المصلين، إلا أنا ووالدي والإمام، لم أكن أعرف في ذلك الوقت عمق انتماء والدي للمكان الذي يمهّد له الطريق إلى الجنة، لكنّي كنت أدرك، تماماً، قدسية المكان ورهبته، وأبقى ملتصقاً بوالدي وهو يقرأ القرآن، وأنا أتجول بعينيّ الصغيرتين في أرجاء المسجد، بأعمدته الضخمة ومنبره ورفوفه.
هل كان هذان الشابّان يقومان بطقوسهما الخاصة؟
هل كانا يهيّئان أنفسهما للموت أم لحياة جديدة؟
هل كانا يزوران المكان الذي استشهد فيه صديقهما، ويريانه ويحاورانه من خلال دمه الذي لم يجف بعد؟
هي لعبة الموت والحياة، هو الحجر.

الحجر الذي رافقنا في ألعاب الطفولة «السبع حجارة» و«بيوت بيوت»، الحجر الذي كبرت معه في أرضنا «الرجام» التي يتوسطها رجم كبير من الحجارة، يطل على سهل «يعبد» الذي ينتهي بمستوطنة «دوتان» التي أقيمت على «جبل الأقرع».

هو الحجر الذي يمتد عبر أراضي فلسطين، بتشكيلات جميلة هي السناسل التي بنتها أيدي الفلاحين الخشنة، حفاظاً على الأرض، وحبّاً وانتماء لها.

هو الحجر الذي كتبت عنه الأديبة التونسية نافلة ذهب بعد زيارتها القصيرة إلى فلسطين بدهشة المُحب وصوفيته.

هو الحجر الذي أتعذّب في البحث عنه لأعيش معه متعة النحت، ولغة التشكيل، وحوار الكتلة، فكان معرض «ناس من ورق وحجر» في العام الماضي ليثير حواراً بين وجوه ملونة فزعة، وكتل نحتية صامتة تطرح مزيداً من الأسئلة. واليوم، وفي غمرة الحدث، وقساوة المشهد، وإشكالية النموذج، يولد معرض «بين الرصاصة والحجر»، لكن، تختلف اللغة، ويختلف اللون، وتكثر الأسئلة.

ويولد العمل بتوتر دون متعة. تسيطر على الأعمال الخطوط الكثيفة التي تخترق مساحات السواد، كما يفعل الحجر، لتظل المساحة الصغيرة بين الرصاصة والحجر تحتضن أحلامي الكبيرة.

مَنْ لي؟! أنا الذي يبحث في اللون والحجر عن وطن، ان أخرج من هذه المساحات لاهثاً وراء شعارات تفصل بين الذات والرماد، بين الإنسان والإنسان، لترسّخ اللامدرك واللاواعي بمفاهيمية المعاصرة والحداثة. أعرف أنني الآن أقف في مساحة ليست كبقية المساحات، وأعترف أنني فخور لكوني جزءاً من هذه المساحات التي لم يتبق لي فيها أصدقاء إلا الحجر.

---

* فنّان تشكيلي فلسطيني يعيش في رام الله.

تجلّيات موت مُعلَن

فايز السرساوي*

ليلة السابع من يناير المنصرم، وفي خبر عاجل لـ«حصاد اليوم» في فضائية «الجزيرة» أفيد أن قوات الجيش الإسرائيلي أقدمت على قتل شاب يبلغ من العمر 34 عاماً، بعد أن تم تقييده إلى عامود الكهرباء القريب من منزله في منطقة «المغراقة» بالقرب من مدينة غزة .

تجهم وجه المذيع قليلاً .. «لحظات وسنعود لمتابعة النشرة بعد فاصل قصير». شارة قناة الجزيرة تنبثق من كرة بلورية صغيرة تقفز بتواتر إلى لجة الخليج الأزرق لتخرج بعد ذلك كلؤلؤة من بريق الذهب.

في هذه الأثناء عقبت «نهاية»: يا الله كم هو مؤلم شكل هذا الموت إنه لأمر في غاية الوحشية، من جهتي لم أجد ضرورة للتعقيب الفوري على دهشتها حول الخبر .

لأسباب أجهلها وجدت نفسي للحظة في حالة شرود عميق، أسير وحيداً في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لأنحرف قليلاً إلى اليمين، قاطعاً مفترق الشهداء (نتساريم) وسط الشارع الترابي المؤدي إلى بيت أجهل ملامحه لشخص محدد اقتحم ذاكرتي فجأة، أتخيله بكامل وجوده، أقترب من بيت لا أعرف موقعه على وجه الدقة، ولكني مدرك أنه أحد هذه البيوت المتراصة جنباً إلى جنب في هذه «المغراقة»، حيث لطالما اعتقدت أن اسمها مشتق من كونها تغرق دوماً بعد كل شتاء في دوامة المياه والأوحال لانخفاضها الطبيعي وسط بساتين الزيتون والبرتقال المجاورة .

هذا هو المسجد الفقير والوحيد على يمين الطريق، مطفأة أنواره تماما، لا نجمة في السماء، ولا شعاع قمر، الأشياء تكاد تتلاشى في ضبابية مطلقة، السكون المهيب يغلف وحشة المكان إلا من صياح بعض الديكة المتردد في البعيد، والذي سرعان ما أخذ يتعالى شيئاً فشيئاً، تابعت الإنصات إلى لحن هذه السيمفونية المتصاعدة بشكل هارموني متواطئ مع أحجية الفضاء، يا لهذه الديكة القلقة؟! كيف تسنى

لها أن تتخطى حدود جغرافيا المكان وسط هذا البهيم؟!
بدا لي أن صياحها القادم من أحياء متناثرة في الأرجاء يفعل بي فعل السحر في غابة نائية على أطراف الكون، لم أستطع أن أميز بالفعل إذا ما كان ذلك صياحاً أم نواحاً موغلاً في النحيب، ودخلت في متاهة محاولة تحديد مصدر الصوت، جاءني صياح أحدها مكلوماً كمن أُخذ على حين غرة، تخيلته قادماً من إحدى حواكير حي الشجاعية شرقاً، يسلم أطراف صيحته إلى قلق آخر يتقافز على سطح بيت في أزقة حارة الزيتون المتاخمة، هذا بدوره يتواصل مع صادح ثان وثالث إلى فضاء حقول مجاورة يلفها السديم، صيحات طويلة ممتدة، وأخرى حادة شبيهة بصفير القطارات عند الرحيل، يتداخل رجع صداها بعضه ببعض ويتناثر إيقاعها في اتجاهات متضادة، أرهف السمع لصياح متوتر كأن به مساً من حنين لديك عجوز يقف على حافة البكاء، لم أتمكن من تحديد مصدر انبعاثه، يتّماهى مع صوت مؤذن صلاة الفجر المسترسل في التسابيح، هي برهة وكأن أصوات ديوك المعمورة تلتقي عند هذا المفترق الغريب، وإذ بي أستسلم تماماً لوحي اللحظة السارية.

تحسست أطرافي فوجدت نفسي شبحاً من رماد مسكوناً حتى الاشتعال بخدر المشهد المتشكل أمامي على نحو لم أشهده في أي من كوابيسي الهالكة، ديكة من كل جنس ولون، مشرئبة الأعناق، ذات عيون من بريق ولهب، لها صدر حصان وأطراف فتية متأهبين كما السهم في بطن القوس، أخذت تهبط من جوف الليل إلى حومة الأديم جامحة في حركة دائرية، تضرب الأرض محدثة دربكة تصم الآذان لتنتظم فيما يشبه إيقاعات الموسيقى الإفريقية، انتابني وجلٌ مباغت حين تكاثرت أعدادها بما لا يمكن إحصاؤه مطلقاً .

يا للهول .. أين المفر مع هذا الصياح / الصهيل الذي يثقب غلاف السماء ويعلو إلى ما لست أعرف أين يأخذني، وفي أي العوالم أطوف؟! لم تسعفني الذاكرة ولا الوقت لأتمكن من استجلاء الأمر، حيث بدأ انهمار اللفافات الورقية من كل صوب وحدب، لفافات عتيقة كأنها خارجة للتو من براثن حرب ضروس، ماذا عساها تكون، الظلام الدامس يحجب عني الرؤية، لا سيما أن قشرة الأرض بدأت تترنح بفعل إيقاعات الرقصة الإفريقية الملتهبة، انفكت إحدى اللفافات بسبب وهن الخيط، لعلها أوراق «طابو» تحررت من قبضة الريح بعد طول رحيل.

تيقنت من ذلك بعد أن أخذت الأحرف تستجمع قواها وتترجل بجانبي كطفل وليد يتلمس ثدي أمه، لقد انغلق عليَّ باب الذهول حين حطت على ساعدي الأيمن فراشة منهكة مدت يدها نحوي بعصبة مفاتيح حديدية غريبة الشكل والقالب، كان لاصطكاك بعضها ببعض رنينٌ مخمليّ جليل أعاد المشهد برمته إلى بئر من الصمت شديد الوقار، همَسَتْ بصوت كالناي في مبسم عاشق من رعاة هضاب الأناضول، انظر .. ها هي المفاتيح التي لم يعد لها أقفال أتيت بها معي من خلف أسوار الأستانة، وقد أوصى جناب عظيم صدر الخليفة بإيصالها إلى هنا، حمّلني بالغ التحيات وودعني على عتبات الباب العالي قبل قليل، أرجوك لا داعي لسؤالات أو استفسارات حول الموضوع، هبطت الفراشة من فوق ساعدي كما يليق بالفراشات الهبوط، وتمثلت أمامي على هيئة شيء لا يعرف المغيب، تمثالاً مرمرياً قُدّ من جبال طوروس، لم يكن في صوت «بيرجان» ما يوحي بالعتاب أو الندم، قالت كلماتها بوضوح وثقة، ورمقتني بنظرة

ذات معان خاصة جداً، انتقلتْ رويداً فيما يشبه رفع الحصار التدريجي من سلسلة المفاتيح التي في يدها إلى أصابع يدي الضاغطة بقوة على لفافة الورق في محاولة لتفادي هول المفاجأة، ابتسمتْ ابتسامة شفيفة، وعلى عجل كأن الريح تحتها وفوقها وعلى جانبيها، توارت كفراشة ناصعة البياض دون أن تترك أثراً سوى صدى صوت الناي يتردد في الأنحاء ويغمرني بأشجان حارقة، انخرطت بعدها في بكاء مكتوم ومتواصل، اختلط عليّ الأمر كلية، واسيت نفسي بأني لربما استيقظ من حلم مبهم، وبمجرد أن فتحت عيني خررت مغشيّاً عليّ بفعل أنوار شديدة السطوع دهمتني من أطراف المستوطنة المجاورة.
شدة سطوع الأضواء المباغت كادت يمسحني من الوجود مرة واحدة، هكذا، لولا أنني أفقت على حصاة صغيرة حادة علقت بين أصابع قدمي اليسرى سببت لي ألما قاسياً في طرف الإبهام، تنفست عميقاً لالتفت بعدها إلى «نهاية» وهي تحاول هدهدة سراج بأهزوجة ما قبل النوم، سألتها إذا ما كانت قد سمعت «بالمغراقة» من قبل ؟! يبدو أنها لم تنتبه لسؤالي ولم أكن بدوري أنتظر إجابة محددة، فقد عاودني شرود ذهني مفاجئ وحملني إلى مغارة نائية، انتابتني زوبعة مشاعر ملتبسة ومركبة في آن، شعرت بما يشبه أنين صوت مبحوح يخرج لاهثاً من أعماق بئر مهجورة، ربما كان ذلك مواء قطة صغيرة، وجدت نفسها محاصرة في لجة من ظلام سحيق، وسَمعتني أحدث نفسي:
المغراقة .. المغراقة .. بالتأكيد أنا أعرف تلك الناحية، أي بلاد هذه التي تسرقنا من ذواتنا دون انتباه منا؟! ترى ما الذي يفعله صديقي الرسام الآن هناك، لعله يلملم بقايا خواطره وخربشاته المتناثرة ليحميها من عبث الوقت وجنون اللحظة، لقد مر زمن طويل لم نلتق إلا لُماماً ..
ياه .. كيف تنقضي الأعوام على هذا النحو السريع، حقيقة الأمر أنا لا أعرف في تلك المنطقة شخصاً آخر، لم تسعفني صدف الحياة للالتقاء بآخرين من تلك الناحية المجهولة ولكن كيف يحدث أن ... لا ... لا ... لا أعتقد ذلك، ابعدْ عن خاطرك يا فايز هذه الظنون العابرة .. مستبعد أن يكون قد حصل هذا مع الشخص الوحيد الذي تعرفه هناك .. ثم إن صديقك كما تعرفه ليست له علاقة بهذه الأمور، خاصة في هذه الساعة من هذه الليلة في بداية هذه السنة التي تأتي مع مطلع هذا القرن .
يخيّل إليّ أحياناً، أن لوداعة صديقي وما لمسته حولطبية شصته من عزلة وانطوا وترد تسامح أيضاً ما يجعلني أن أتصور مثلا .. إن حصل والتقى هكذا صدفة مع «الموت» في أحد الشوارع الضيقة أو على منعطف أحد الأزقة فسرعان ما سيبادر «الموت» له بالاعتذار والأسف الشديد على هذا الموعد غير المرتب وسينسحب فوراً دونما تردد ليمر من طريق آخر، تاركاً صديقي يواصل الاسترخاء في ملكوت طمأنينته الذاتية، غارقاً في شروده اللانهائي .
صباح اليوم التالي طرق باب مكتبي في الطابق الأول من مبنى وزارة الثقافة ثلاثة أشخاص دفعة واحدة ..! نادراً ما قدموا إلى هنا معاً على هذا النحو الغريب، اثنان منهم أراهم بين الحين والآخر، أما الثالث ورغم معزتي الشخصية له، أراه على فترات متباعدة، أحياناً تمر سنة كاملة دون أن نلتقي، غالباً ما يكون التقائي به نذير شؤم ما، وهو يقر بذلك، بادرته بمجرد أن دلف إلى باب المكتب، «جمال» أين أنت يا رجل، أما زلت على قيد الحياة، أية مصيبة تحمل معك هذا الصباح، لاحظت أن ابتسامته تنم عن

انكسار حزين، هكذا وصلتني على الأقل، ابتسامة غير متزنة أتبعها بهمهمة بدت لي غير مفهومة، أردف قائلاً: نعم يا عزيزي، هناك مصيبة فعلاً، وجلس على الكرسي المقابل بشكل يوحي بأن هبوطاً مفاجئاً دهمه للتو وهكذا فعل الاثنان الآخران .
– ماذا تخطط اليوم؟ هل من مشاريع جديدة؟
– نعم، قال، أخطط مشاريع .. أنت تعرف عبد الحميد.
– قلت: لا تقل لي أمس إن «المغراقة» قد ..!! وصمت .
قال حسام: نعم «المغراقة»، قد استشهد فيها عبد الحميد أمس، هل تصدق ذلك؟! وحط على رؤوسنا طير من سكون أراه الآن وقد استحال إلى علامة استفهام بحجم هذا الرحيل المباغت، للحظات خلت كنت قد نسيت تماما خبر الجزيرة العاجل بالأمس، ولم أعد لأتذكر تلك المشاعر المصاحبة للحظات الشرود العابرة، والآن يصر «جمال» على أن يبقى وفيا لما هو عليه من دعابة ولطف معهودين ونحاسة ايضاً، أما باسل فقد أطبق عليه صمت كامل، ولم ينبس ببنت شفة.

نعي شهيد في جريدة

غزة – برنامج الفنون الجميلة في جمعية الشبان المسيحية بغزة، وتجمع المسرحيين الفلسطينيين بقطاع غزة، وفرقة مسرح للجميع، ودار الجلاء للثقافة والفنون، ينعون بمزيد من الحزن والأسى صديقهم الفنان التشكيلي والمسرحي عبد الحميد أحمد الخرطي الذي سقط شهيداً على أرض المغراقة برصاص الجيش الإسرائيلي أمس .
علاقة عبد الحميد ببرنامج الفنون في جمعية الشبان المسيحية كما أعرفها أنا تعود في سيرتها إلى بداية التسعينيات من أواخر القرن المنصرم، هكذا دون سابق موعد، وكما تحدث الأشياء في العادة هنا، جاء شاب يبدو أنه في مطلع العشرينيات تقريباً، يحمل بعض الكراسات ولفيفاً من أوراق مطوية.
هنا في هذا المكان تحت هذه الشجرة، وسأل عن المسؤول الإداري للجمعية: أنا أريد أن أستفسر عن المسرح، هل لديكم مسرح؟ سمعت أن لديكم فرقة، وأنا أحب التمثيل، ورسام أيضاً، انظر هذه الرسومات لي. بدا عبد الحميد خجولاً فعلاً، ولكنه صريح وواضح وبسيط، هو يريد أن يصبح فناناً وما المانع في ذلك؟ فليكن على عكس إرادة أبيه الذي يريده أن يكون في مهنة محترمة، كالتمريض، مثلاً.. لاحقاً سيصبح وقت عبد الحميد موزعاً بين التردد على مرسم جمعية الشبان، ومتابعة دروس دورات الفنون من ناحية والمواظبة على تعلم مهنة التمريض في مستشفى المدينة وفق رغبة والده من ناحية أخرى، ولينخرط أثناء ذلك في نشاطات لها علاقة بالمسرح والمسرحيين الذين يترددون على المكان.
ذات مساء، أثناء درس التصوير الزيتي، بينما الإضاءة الخافتة تتساقط على جنبات التكوين الحي لعازف العود الشاب، بدا لي مناخ المرسم مشبعا بأجواء صوفية كسولة، كان الصمت يشي بأسرار أغنية فيروزية ذات شجون، اقتربت من مسند الشاب المنهمك تماماً في معالجة بقعة الضوء باستخدام ضربات فرشاة عريضة، وبحركات لا تخلو من جرأة غير متوقعة، توقفت بجانبه دون تعليق، اذكر تلك

اللحظة الودودة كما لو أنها تتشكل الآن، والتي ستغدو بيننا ككلمة سر فيما بعد، ربّت على كتفه فنظر إليّ وخاطبني على استحياء: «ها كيف شايف؟!».

قلت: عظيم يا عبد الحميد تبدو جريئاً هذه المرة، استمر هكذا، اذهب في هذا الاتجاه، كم من الوقت مر على انقضاء تلك اللحظة الواعدة؟! ما يقرب من عشر سنوات متتالية، تغيرت أحوال وتبدلت أقوال، توافد على المرسم أشخاص كثر، صدحت أغانٍ وانطفأت معانٍ، علقت على الجدران لوحات عديدة واختفت أخرى، الثابت الوحيد، ولسبب ما، أن لوحة «عازف العودّ الشاب» بتوقيع عبد الحميد الخرطي لا تزال تحتفظ بموقعها على الجدار، يشاهدها الطلبة الجدد كنموذج لعمل جيد لريشة قلقة، لأحاسيس متوترة .

أتساءل الآن: كيف استطاع هذا المتدرب الجديد نقل توتراته الداخلية، وعكس قلقه على وجه «الموديل» الحي، هي لحظة انفعال صادق كما أراها الآن، جريئة وغير متوقعة .

تلك الأيام كما نشهدها اليوم، انتفاضة للروح وللجسد معاً، الناس تمارس شؤونها على إيقاع «لا صوت يعلو»، وشعارات المرحلة مذيلة بتوقيع «ق.و.م.» والأبواب مشرعة على كافة الاحتمالات.

«هكذا هي الأشياء دوماً
تبدأ من نقطة ما
وما من أحد يستطيع التنبؤ
بمصير النهايات
وللنهايات أسرارها المعلنة
إشراقة الأبيض المرمري من حالكة السواد
انقشاع الضباب عن أخضر اليابسة
عودة العائدين إلى ما استطاعوا
من بحر وذاكرة.
أراهم كما العاشقين الصغار
يفتشون بين خبايا السطور
عن جملة تائهة
ينقشون شكلاً لحروف أسمائهم
على جذع شجرة مهملة.
يرسمون ويحلمون بوجه البعيدة
كما العاشقين الصغار
يختلسون الوقت من طياته
تستهويهم روح المغامرة
يرسمون ويحلمون
بموعد مع غد قادم

لاجتياز لوعة المجازفة».

منذ متى كان لقاؤنا الأخير؟ أذكر ذلك قبل شهر تقريباً من تاريخ مصرعه الفاجع، حيث كانت المرة الأولى التي أصافحه فيها بعد عودته من فرنسا مصافحة غير مبالية لا تخلو من مودة قديمة، سألني بشكل مقتضب: فايز يا صديقي، عندي رواية فرغت من كتابتها، ولي رغبة في نشرها، هل لك أن تدلني كيف يحصل الأمر في الوزارة أو في أي مكان آخر ؟
للحظات وجدت نفسي أختزل الوقت لأستوعب أنه ربما غامر وورط نفسه في كتابة سيرته الذاتية بعد هذا الغياب، يحدث هذا أحياناً لمن يستشرفون النهايات الواقعة، لا محالة، لم يدر بيننا أي نقاش ذي مغزى محدد، لم أسأله عن مضمون الرواية أو ماهيتها.
تملكني شعور بضيق الوقت والتوتر المفاجئ، رأيته منكمشاً على جسمه الناحل بطريقة توحي بأنه يمارس تمريناً قاسياً في رياضة اليوغا، خاطبته بصوت خفيض: «انتهز فرصة وجود المدير العام في مكتبه، اصعد إليه الآن، وناقشه في الأمر، وحين تعود سأكون متفرغا لك».
هز برأسه إلى ناحية كتفه الأيمن، متبعاً ذلك بابتسامة بدت لي مغلقة وتنم عن إحباط متراكم. «سأعود إلى هنا»، قالها وخرج. انشغلت بأمر موعد مسبق، وحين فرغت بقيت أنتظر عودة عبد الحميد الذي قرر، على ما يبدو، مغادرة مبنى الوزارة دون أن يراني، لعله عاد ولم يجدني بسبب مغادرتي المكتب لفترة قصيرة لأمر يتعلق بالموعد المسبق، ولم أعد أعرف إذا ما تمكن من مقابلة المدير العام ومناقشته بأمر الرواية.
تركت الموضوع جانباً على أمل معاودته ذات لقاء قريب، ولكنني وددت لو أننا تحدثنا قليلاً عن بعض الأشياء، عن فترة مكوثه في فرنسا كم من الوقت مكث هناك؟ لا أعرف على وجه التحديد، ربما سنتين أو اكثر أو أقل حيث لي علم بزواجه من فتاة فرنسية التقاها في غزة، لعله تسكع في شوارع باريس وطاف في عوالم جديدة ليروي ظمأ كان يلازمه دوما إلى ما هو غائب ومجهول، لست أدري، لا معلومات حول تلك الإقامة في بلاد الفرنجة، هل تعلّم شيئاً جديداً عن التشكيل وفن المسرح؟ ربما!! قال البعض إنه انفصل عن زوجته الفرنسية في لحظة ما، ولم تعد معه حين عاد، ربما هام على وجهه وتألم كثيراً.
تركوه ينزف 6 ساعات

صباح العاشر من يناير 2001 حملت الصحف المحلية عناوين مثيرة حول قصة الاستشهاد .. حيث كتب مندوبو جريدة (الأيام) ما يلي :
«أطلقت قوات الاحتلال الإسرائيلي مساء أمس، زخات كثيفة من الرصاص باتجاه المواطنين ومنازلهم في محيط مفترق الشهداء ومنطقة المغراقة ما أدى إلى استشهاد الشاب عبد الحميد أحمد الخرطي (34 عاماً) من سكان المغراقة بعد إصابته بعيارات نارية في الرأس والصدر والبطن. وقال شهود عيان في المنطقة لـ«الأيام»: إن جنود الاحتلال المتمركزين داخل دباباتهم المصفحة وآلياتهم المجنزرة والمتوقفة قبالة جامع المغراقة، وعلى خط السكة الحديدية فتحوا نيران أسلحتهم الرشاشة باتجاه الخرطي لحظة

شروعه في السير باتجاه منزله وتركوه ينزف في الشارع نحو 6 ساعات دون نقله إلى المستشفى، وكان الخرطي الذي عاد قبل ثلاث سنوات من فرنسا، ويعمل ممرضاً ومترجماً مع وفود أجنبية وصحافية تزور غزة ولم يحمل في يديه أي أسلحة أو مواد مشبوهة عندما فاجأته رصاصات الغدر ليلاً».

– كان الشهيد يحب الفن والرسم، ويرسم لوحات فنية، ويعرضها في أماكن مختلفة .

– أطلقت والدة الشهيد عبد الحميد الخرطي وقريباته الزغاريد، وذرفن دموعاً كثيرة، بينما كان الشباب يحملون جثمانه إلى مثواه الأخير في مقبرة مخيم النصيرات .

– خيم الوجوم والحزن على عائلة الشهيد وأصدقائه وسكان منطقة المغراقة التي تعاني منذ أيام من عمليات قصف وتجريف متواصلة .

– اصطف الشباب في طابور طويل لإلقاء نظرة الوداع الأخيرة على الشهيد الأول في منطقة المغراقة .

– قال والده: جاءني قبل يومين وطلب أن أذهب إلى مكان آمن غير هذا البيت بسبب خوفه علينا من غدر جنود الاحتلال المتمركزين في الجوار، وانخرط في بكاء صامت .

– قال أحد أصدقائه بحزن: لا يمكن أن نصدق أن عبد الحميد غادرنا فجأة .

– في مقبرة الشهداء أطلق مسلحون النار في الهواء احتراماً للشهيد وذكراه .

– تساءل عجوز وهو يخرج من المقبرة: من سيكون الشهيد التالي ؟!

– في إفادة لوزارة الصحة، تحدثت وثيقة صادرة عن مديرية التمريض أن النيران أطلقت على كافة أنحاء جسده، وأن نقله إلى المستشفى تم بعد إجراء التنسيق مع الجانب الإسرائيلي، حدث ذلك بينما لم تتمكن عدسة «طلال أبو رحمة» من ارتكاب حماقة ثانية، في حين أن أفلام الأشعة في مستشفى الشفاء تطوعت بتقشير جلودنا لتنفذ لمفاصل عظامنا الواهنة .

بالتأكيد، لن تنتهي الإفادات، سيأتي من يدلو بدلوه بعد حين، سيقول آخرون أشياء نجهلها، ربما تخرج علينا صبية سمراء من وسط الحقول لتدعي أنك غازلتها حين كانت تحوش الغنم، وسيعود جندي احتياط مرتبكاً إلى أحضان زوجته ليلاً ليهديها شبق فحولته على سرير محاصر بوهج دمك !!

«لليل يحزم حقائبه الأخيرة
ويمضي خاسراً إلى منتهاه
أمد يداً من غيوم
أصافح برد الشتاء مطلع العام
لنجمة تسطع فوق صدر الريح
أتلو صلاتي وحيدا
أقول الوداع ومرحى معاً».

ووسط ما تركته جريمة مقتلك البشعة من ردود فعل ساخطة واصلت الصحافة المحلية اهتمامها بالموضوع من زوايا مختلفة، ولك أن تغبط نفسك من مرقدك لهذا الانتباه المفاجئ، وها أنذا أتتبع بعض التعقيبات هنا وهناك، فقد أوصى «ياسر عبد ربه» وزير الثقافة والإعلام في السلطة الوطنية الفلسطينية

بالإسراع في طبع مخطوطة روايتك اليتيمة، وكلف الوزارة بإقامة معرض لمجموع أعمالك المتوفرة، إلى ذلك، تداعى نفر من أصدقائك لمناقشة فكرة إحياء ذكرى الأربعين لروحك الهائمة والمعذبة .

انظر معي مثلاً إلى هذا العنوان: الفنان الخرطي.. ملاحظات في المسرح والفن التشكيلي، حيث تطوع أحد أصدقائك العاملين في الصحافة بمحاولة عرض بعض الإشارات التي ظهرت في بعض أعمالك الفنية مشيراً لمشاركتك في معرض لهواة الفن التشكيلي أقيم في جمعية الشبان المسيحية في شهر شباط العام 94 وقد قام بنشر خاطرتك النثرية التي كتبتها في حينه لمطوية المعرض، والمتضمنة لرؤيتك اللونية بعنوان «نقطة لون» وبدوري أنا أقتبس منها :

«جميل جدا هذا الاشتعال في أكوام الكسل الجماعي الموروث في غايات القحط وفوضى الانضباط، قبيل بداية الحياة وعند نهاية اصطراع اللون مع بياض الشكل، ومع أول شعاع يقبل خد الأرض في غزة، ويحتضن أسيجة البيارات، تجفل خيوط العتمة وتصهل رغبات مكبوتة في رفات الدوري وشبق البرتقال».

لم يكتف صديقنا الصحافي بما كتب حين قرر المشاركة مع زميل آخر، وفي صحيفة أخرى، بإلقاء مزيد من الضوء على ذلك الحب المرافق للحلم، حيث تطرق كاتب المقال في الصفحة الأدبية في «الأيام» إلى حادثة استشهادك كشاعر ومسرحي وتشكيلي بقيت ألوانه على جدران غزة، ومنوها أنك غادرتنا تاركاً خلفك رصيداً مهماً من اللوحات والكتابات والأعمال الفنية المختلفة، ومعارض جماعية، ومعرضاً شخصياً واحداً، أعمالاً في المسرح ومخطوطة رواية... الخ .

«حيث لا تزال ألوانه على واجهة مقهى «ديليس» في مدينة غزة، الذي عمل نادلاً فيه، وعلى جدران المركز الثقافي الفرنسي في شارع «فيكتور هيغو»، حيث كان يعمل مترجماً للطواقم الصحافية الفرنسية .

«مرحى لمطلع القرن ينحني خاشعاً
تحت ظل القوس؛ قوس الباب
قرب سور المدينة
يطل على مجده الغابر من بؤرة الكون».

أواصل مطالعة المقال، حيث يسترسل «عاطف»، تحليلاً، حول معرضك الشخصي الذي أقيم في المركز الثقافي الفرنسي ربيع 1999، نتيجة دراسة أعددتها أنت بنفسك، وجاءت الخطوط والألوان قوية وحادة– نفس وحيدة معذبة في مواجهة الانغلاق– كما يقول جورج؛ برتراد» المدير السابق للمركز «لم تسلم لحظة افتتاح المعرض من «بوهيمية» عبد الحميد إذ اختفى فجأة وافتتح المعرض دون صاحبه الذي اكتفى بحضور لوحاته عنه، والتي هي على أية حال هواجس قاسية مشتعلة».

والحال هي الحال .. نذهب إلى اليوم التالي آملين بدم أقل وعالم أحلى، أبهى، ننثر بعض الورود على بقايا دمائك التي نزفت على أرض «المغراقة» أيقونة مضيئة لأحلام أترابك الشباب الحر، والذين نضجت أيامهم بسرعة خاطفة بين انتفاضتين مجيدتين، الأولى تشبهك والثانية، أيضاً، تشبهك .

«أراني الآن ناضجاً في عنفوان دمي
صاعداً إلى حتفي مبتهجاً
يحتويني سجل القافلة
مشيعاً كخبر عاجل لتقارير «وليد العمري»
تتقاسمني فضائيات الكون
في عصر العولمة
وتعيد صياغة موتي كما تشتهيه القبائل».

---

* فنان تشكيلي فلسطيني يقيم في غزة .

إشارات:
نهاية: نهاية أبو نحلة «زوجتي»
جمال: جمال أبو القمصان صديق مقرب من عبد الحميد
حسام: حسام المدهون صديق مقرب من عبد الحميد
باسل: باسل المقوسي، من معارف عبد الحميد
عيسى: عيسى سابا «سكرتير جمعية الشبان المسيحية»
عاطف: عاطف أبو سيف «كاتب صحافي»
المدير العام: الشاعر أحمد دحبور
بيرحان: بيرحان توبال اغلو «نحاتة تركية معاصرة وشاعرة مغمورة لم يقرأ أشعارها أحد سواي».
طلال أبو رحمة: المصور لمشهد إعدام الفتى محمد الدرة «وكالة الانباء الفرنسية».
وليد العمري: مراسل فضائية الجزيرة في فلسطين .